العجوز والبحر

إرسنت هيمنجواي

◆ المؤلف: إرنست هيمنجواي
◆ العنوان: العجوز والبحر
◆ ترجمة: محمود حسني
◆ طبعة آفاق الأولى 2016
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

◆ Author: Ernst Hemngway
◆ Title: The Old Man & The Sea
◆ Translated by: Mahmoud Hosny
◆ Afaq's First Edition: 2016
◆ Cover Design by: Amr El Kafrawy

رقم الإيداع:
٢٠١٥ / ٢٠٢٩٧
الترقيم الدولي: ISBN
978-977-765-040-1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

العجوز والبحر

إرنست هيمنجواي

رواية

ترجمة

محمود حسني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

هيمنجواي، إرنست.

العجوز والبحر: إرنست هيمنجواي- ترجمة: محمود حسني

ط1القاهرة -آفاق للنشر والتوزيع - 2016

128 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20297 / 2015

الترقيم الدولي 1 - 040 - 765 - 977 - 978

1 - القصص الإنجليزية

2 - هيمنجواي ، إرنست

أ - حسني، محمود (مترجم)

ب - العنوان 827

كنتُ في الرابعة عشر عندما قرأتُ «العجوز والبحر» لأوَّل مَرَّةٍ. جعلتْني هذه الرواية مهمومًا بأحداثها طوال أيَّام قراءتي لها، وحتَّى بعدما انتهيتُ منها. ثُمَّ قرأتُها في ترجماتٍ أُخرى على فتراتٍ متباعدةٍ. ثُمَّ عُدتُ بعد ذلك بسنواتٍ للنص الأصلي مدفوعًا برغبةٍ في استكشاف هيمنجواي بلغته. شعرتُ أثناء قراءة العمل بالإنجليزية أنَّ تلك المسافة القديمة بيني وبينه والتي لم أكنْ أفهم سببها قد أُلغيت؛ فوصلتني كلماته مباشرةً كما لو أنني أجلس أمام هيمنجواي وأشاهده بينما هو ينقر النصَّ جُملةً بعد أُخرى على آلته الكاتبة واقفًا. كان الأمر كما لو أنَّ كلمات النص قد وَشَتْ لي بالسر. شعرتُ حينها أنَّ حدسي كان مصيبًا إلى حدٍّ كبيرٍ. فعلى الرغم مِن سهولة أسلوب الكاتب، إلَّا أنه يترك للقارئ الكثير خلف ما يكتبه. لا يقول كلَّ شيءٍ. هذه الفراغات المـُتخيَّلَة تجعل ترجمة النص أمرًا عصيبًا، حتَّى ولو كان في لغته الأصلية يبدو مكتوبًا بأسلوبٍ سهلٍ.

أتذكَّرُ هنا كلمات جون بيرجر الروائي والشاعر والناقد البريطاني عندما قال: «إنَّ الترجمة ليست علاقةً ثنائيةً بين لغتين، بل علاقة ثلاثية. وضلع المثلث الثالث يتمثَّلُ فيما هو كامنٌ وراء النص الأصلي قبل كتابته. والترجمة الحقيقية تقتضي الرجوع إلى ما قبل اللغة. فيقرأ المرء كلمات النص الأصلي المرة تلو المرة إلى أن ينفذ منها ويصل إلى الرؤية

التي دفعتْ إلى هذه الكلمات ويلمسها لمسًا. ومِن هنالك يجمع المرء ما يُصادفه ويأخذ هذا «الشيء» المرتعش اللا لغوي تقريبًا؛ ليضعه وراء اللغة التي سوف تتم الترجمة إليها. وتُصبح المهمة عندئذٍ هي إقناع اللغة المستضيفة أن تَقبل «الشيء» وتُرحِّب به وتنهي انتظاره لأن يقال».

(مقطعٌ مِن مقالٍ مُترجَمٍ على مدونة أحمد شافعي)

http://readingtuesday.blogspot.com/2014/12/blog-post_16.html

تبدو كلمات أبدايك متجاوزةً أن تكون تفسيرًا أو توضيحًا لإشكاليةٍ ظلَّتْ وستظلُّ تُواجه البشر فيما يخصُّ فعل الترجمة ذاته، بل تجدها تجسيدًا فلسفيًّا وجوديًّا يجعلنا نرى اللغة -كمفهومٍ- بشكلٍ مغايرٍ عما اعتدنا عليه.

عندما أرادت دار آفاق ترجمة «العجوز والبحر» مِن جديدٍ، كان عليَّ أن أُبلورَ رؤيةً حول الطريق الذي سأختار أن أسلكه في ترجمة العمل. وقد اخترتُ أنْ أقرأ العمل كله قراءةً «تليسكوبيةً»؛ أي تلك القراءة التي أُحاول فيها الذهاب لما هو أكثر بُعدًا مِن الكلمات والتراكيب اللغوية، وصولًا للحالة الشعورية التي كتب بها هيمنجواي العمل.

ثُمَّ قراءة العمل مَرَّةً أُخرى قراءةً «ميكروسكوبيةً»؛ أي تلك القراءة التي أُحاول فيها تلمُّس سيميائية النص في الإشارات والعلامات التي تتركها الألفاظ وطريقة صياغتها بالإضافة لعلامات الترقيم على تنويعاتها، حسب حالة استخدام كلٍّ منها في العمل.

هذه الرواية أجدُها نصًّا شديد الحساسية، ونصًّا لا يُظهِر في لغته الأصلية سوى «قمَّة جبل الجليد»، تاركًا استكشاف أعماقه التي تتجذَّر في عقل

الكاتب الأشبه بالمحيط لخيالات القراء على اختلافاتهم الثقافية.

كلُّ ما أودُّه اليوم وهذا الكتاب بين أيديكم، أن تكون هذه الترجمة ختامًا على نحوٍ يعكس علاقةً شديدة الخصوصية، نشأتْ بيني وبين هذا العمل منذ كنتُ ابن الرابعة عشر، مرورًا بقراءاتي المـُتعدِّدة المتباعدة له، وصولًا لمحاولتي هذه في التعامل مع هذا النص الفريد أثناء ترجمته، واضعًا في تفكيري أن تكون محاولةً ذات أبعادٍ تتعدَّى إشكالية اللغة والترجمة، لتصل لما هو أكثر رهافةً في تكويننا الإنساني.

فسلامٌ على رُوح إرنست هيمنجواي.

عن الكاتب:

وُلِدَ إرنست ميللر هيمنجواي في «أوك بارك»، بضاحية شيكاجو عام ١٨٩٩. كان الابن الثاني بين ستة أبناء لطبيبٍ. التحق عام ١٩١٧ بجريدة «نجمة كاناس سيتي» كمُحرِّرٍ تحت التدريب، وفي السنوات التي تلت ذلك تطوَّع كسائق عربة إسعافٍ في الحرب على الجبهة الإيطالية، حيث أُصيب بجروحٍ بالغةٍ، وقد تمَّ تكريمه مرَّتين لخدماته الشجاعة. عاد إلى أمريكا عام ١٩١٩، وتزوَّج عام ١٩٢١. وفي عام ١٩٢٢ شارك في تغطية الحرب التركية اليونانية، وقرَّر بعدها بعامينِ أن يستقيل مِن العمل بالصحافة، ويُكرِّس نفْسه مِن أجل الأدب. استقرَّ في باريس، حيث استعاد صداقاته المـُبكِّرة مع زملائه الأمريكيين المغتربيين، كـ: عزرا بوند، وجيرترود شتاين. وقد لعب تشجيعهما ونقدهما لكتاباته دورًا هامًّا في تشكيل أسلوبه الذي تميَّز به.

أوَّل عملينِ نُشِرا لهيمنجواي كانا «ثلاث قصصٍ وعشر قصائد»، و«في أوقاتنا». ولكنَّ روايته الساخرة «سيول الربيع» كانت السبب في انتشار اسمه بشكلٍ أكبر. ومع أعماله الثلاثة التالية «العيد»، «رجالٌ بدون نساءٍ»، «وداعًا أيها السلاح»، استقرَّتْ شُهرته العالمية في أذهان القرَّاء.

كان هيمنجواي مُغرَمًا بالمشاركة في مصارعة الثيران، ومغامرات الصيد الكُبرى في البراري، ورحلات الصيد البحرية. وعكستْ كتاباتُهُ هذه التفاصيل التي كان شغوفًا بها. زار أسبانيا أثناء الحرب الأهلية؛ ووصف تجربته في الرواية التي كانت مِن الأكثر مبيعًا وقتها «لمَن تقرع الأجراس».

أسلوب كتابة هيمنجواي المـُباشِر والمـُخادِع في الوقت نفْسه، وَلَّدَ جيلًا مِن الكتَّاب الذين حاولوا اتباع طريقته، ولكن لا أحد منهم قارب قيمته.

أتى الاعتراف بمكانة هيمنجواي في الأدب المعاصر عام ١٩٥٤ عندما مُنِح جائزة نوبل بعد عامين مِن نشره «العجوز والبحر». وتُوفِّي هيمنجواي عام ١٩٦١، ولا يزال أمر وفاته حتَّى الآن حائرًا بين: أنَّ طلقةً خرجتْ بالخطأ أثناء تنظيفه لبندقية الصيد الخاصة به أودتْ بحياته، أو أنه قد انتحر متعمدًا.

أسلوب هيمنجواي... قمة جبل الجليد

يقول هيمنجواي: «أُهيِّئ أغلب أعمالي في ذهني، ولا أبدأ أبدًا في الكتابة قبل أن تكون أفكاري مُنظَّمةً. وكثيرًا ما أقوم بتلاوة نصوصٍ مِن الحوار بالطريقة التي ستكون عليها عند كتابتها. إني أؤمن بأنَّ الأُذُنَ هي أحسن مراقبٍ وحَكَمٍ. ولا أكتبُ أيَّ جملةٍ على الورق قبل أن أتيقَّن بأنَّ الطريقة التي تم التعبير بها ستكون مفهومةً وواضحةً تمام الوضوح للجميع».

اشتُهر هيمنجواي بجمله القصيرة وعرضه المـُبسَّط للفكرة التي يُريد الحديث عنها. هو يكتب بوضوحٍ وبألفاظٍ سهلةٍ ومُختارَةٍ بعنايةٍ فائقةٍ؛ لإيصال الفكرة في أنقى صورها وأصفاها، فيما لا يدع مجالًا للشك فيما يريد قوله. حيث يقول الكاتب الأكثر إثارةً للجدل جي دي سالينجر: «إنَّ أسلوب هيمنجواي عبارة عن رسائل تليجراف»، وذلك في تعبيره عن فرط قصر جمله وعنايته بها.

أسلوب هيمنجواي الذي جعل أعماله في متناول الجميع ومحببةً لأغلبية القراء، يرجع لكونه كان صحفيًّا؛ حيث إنَّ المواد الأخبارية والمقالات يُحسب لها بالمساحة، لذا تحتاج إلى اختزالٍ واستخدامٍ للجمل القصيرة بوضوحٍ وبشكلٍ مباشرٍ لإيصال الفكرة. هذا الأسلوب يبتعد عن الزخرفة والتنميق ويكون واضح المعالم، والجمل التي تكون خاليةً مِن النعوت والصفات والإطالة التي تُشوِّش القارئ، كما يُخبرنا هيمنجواي نفْسه. هذا لا يعني أيضًا أنه كان يجعل جميع الجمل قصيرةً ومباشرةً ممَّا يُفقدها عنصر الجذب، لكنَّ قدرته على وصف الحدث والشعور في أقلِّ مِن جملتين وجعلها عالِقةً في ذهن القارئ هو ما أبهر النقَّاد والأدباء في زمانه. في روايته الأشهر «العجوز والبحر»، كتب هيمنجواي التالي: «حينئذٍ، شعر بالأسف؛ لأنَّ السمكة الكبيرة ليس لديها ما تأكله، وتصميمه على قتلها لم يخبُ أبدًا مع هذا الشعور بالأسف. وفكَّر في كم مِن البشر ستطعم هذه السمكة»؟ هذان التعبيران المتناقضان: تعاطفه مع السمكة وعدم حصولها على الطعام، وعلى النقيض منه إصراره على قتلها، ومِن ثَمَّ في الجملة القصيرة بعدها يُوضِّح لماذا قام بهذا العمل. تجد في هذا التركيب اللغوي بلاغةً عميقةً؛ فهنا اختُزِلت جميع التفسيرات والتحليلات النفسية في جملةٍ واحدةٍ. أيضًا هذا المزج بين الجمل الطويلة والقصيرة أضاف بعدًا موسيقيًّا على أسلوب كتابته، وجعله أكثر قربًا للقارئ.

نُلاحِظ أيضًا فيما يخص حديثه إلى السمكة أنَّه لم يُوجِّهْ لها الحديث أبدًا بضمير غير العاقل (It)، فدائمًا ما وجَّه لها حديثه بضمير العاقل. أحيانًا يتحدَّث إليها بصيغة المؤنث، وأحيانًا أُخرى بصيغة المـُذكَّر.

يبدو هذا للوهلة الأُولى مُربِكًا، لكن مع القراءة بشيءٍ مِن التأمُّل، نُلاحِظ أنَّ هيمنجواي على لسان الصيَّاد دائمًا ما كان يتحدَّث إلى السمكة بصيغة المذكر عندما يشعر أنها عدوٌّ أو خصمٌ له في معركة صيده لها، أو عندما يكون غاضبًا أو لديه مشاعر سلبيةٌ ذكوريةٌ نحوها. أما حديثه لها بصيغة المؤنث العاقل فكان عندما يشعر بالشفقة نحوها، أو الأسف على المصير الذي آلت إليه في النهاية.

لدى هيمنجواي نظريةٌ في الكتابة الإبداعية، يُطلق عليها أكاديميًّا «الجبل الجليدي»، أو «نظرية الحذف». يقول هيمنجواي بشأنها: «إذا كان الكاتب يعرف ما يكفي ممَّا يكتبُهُ، فإنَّ لديه القدرة على حذف الأشياء التي يعرفها هو والقارئ على حدٍّ سواء؛ إذا كان الكاتب يكتب ما يكفي حقًّا، سيكون هناك شعورٌ بتلك الأشياء غير المكتوبة وبقوةٍ، كما لو أنَّ الكاتب قد ذكرها؛ إنها مثل حركة الجبل الجليدي، حركته ترجع إلى أن ثُمُن حجمه فوق الماء؛ والكاتب الذي يُغفِل الأمور لأنه لا يعرفها، سوف يترك حفرًا وثقوبًا قبيحةً في كتاباته».

خاصية أُخرى في أسلوب إرنست هيمنجواي، وهي: سرعة تواتر الجمل؛ فنجد أنَّ جُمَلَهُ تتميَّز بسهولة وسرعة القراءة والاستيعاب مِن قِبَل القارئ. إنها جُمَلٌ خفيفة اللفظ وسريعة الإيقاع. يُفضِّل هيمنجواي استخدام كلماتٍ قصيرةً بدلًا مِن الطويلة ثقيلة اللفظ، ثُمَّ يستغني في جملةٍ عن الفاصلة ويستبدلها بحرف العطف «واو». وبرغم أنَّ الاستغناء عن الفاصلة بين الجُمَل قد يجعلها صعبةً للفهم، لكنَّ هيمنجواي وشهرته بإعادة كتابة نصوصه في عدَّة مسوداتٍ وعنايته الفائقة بالنصوص مكَّنَتْهُ مِن تفادي هذه المعضلة.

كواليس الكتابة:

بالرغم مِن مرور أكثر مِن نصف قرنٍ على رحيله، لا يزال الكوبيُّون يتذكرون إرنست هيمنجواي الذي أقام وكتب بينهم عددًا مِن أبرز أعماله، وفي مُقدِّمَتِهَا رائعتاه «لمَن تقرع الأجراس؟» (١٩٤٠)، و«العجوز والبحر» (١٩٥٢). لا يزال الـمُسنُّون مِن سُكَّان هافانا إلى اليوم، حين يتحدَّثون عن صاحب «ثلوج كليمنجارو» (١٩٣٦)، يقولون «بابا»، وهو اللقب الذي اشتُهر به بين سكَّان الجزيرة خلال إقامته المطوَّلة بينهم على مدى عقدينِ مِن الزمن.

يتذكَّرون القصة التي شاعتْ بينهم عن كيف بدأت البدايات الأُولى لمخطوط «العجوز والبحر». ذات ليلةٍ ربيعيةٍ عام ١٩٥٠ نهض هيمنجواي عن المائدة فجأةً أثناء حفلة أقامها بمنزله في هافانا عاصمة كوبا، وقرأ على ضيوفه بعض المسودات. كانت المسودات التي قرأها هيمنجواي عبارةً عن حوار بين صيَّادٍ عجوزٍ وصبيٍّ؛ وفجأةً توقَّف عن القراءة، وبدأ يسأل نفْسه: «هل هذا صحيحٌ؟! أيتحدَّث الناس هكذا؟!» حاول الضيوف الاستفسار عمَّا يحصل. لكنَّ إيماءةً مِن زوجة هيمنجواي الرابعة «ماري ويلش» جعلتهم يُحجِمون عن المزيد مِن الأسئلة ويغادرون. وفي صباح اليوم التالي وضع «رينيه» خادم هيمنجواي لافتةً أمام المنزل كتب عليها : «يُمنَع الدُّخول دون موعدٍ»، ممَّا يعني أنَّ أديبنا بصدد إنجاز عملٍ جديدٍ. أصدر هيمنجواي روايته «العجوز والبحر» في الأول مِن سبتمبر عام ١٩٥٢، وفور صدورها بيع منها ١٥ ألف نسخةٍ، وحلَّتْ في المرتبة الأُولى

مبيعًا طيلة شهورٍ عدَّةٍ، ونال هيمنجواي عنها جائزة بوليتزر، وهي أرفع جائزةٍ أدبيةٍ في بلاده.

بعد صدور «العجوز والبحر» بعامين، نال هيمنجواي جائزة نوبل عام ١٩٥٤ التي جاء في كلمة الإعلان عن فوزه امتداحًا لتمكُّنِهِ مِن فنِّ السرد، خاصَّةً في «العجوز والبحر»، واستلم السفير الأمريكي في استوكهولم الجائزة نيابةً عنه لمرضه.

المُترجِم:

إلى: تشارلز سكريبنر، وماكس بيركينز.

كان رجلًا عجوزًا ذلك الذي كان يصطاد وحده في قاربٍ شراعيٍّ صغيرٍ في مياه الخليج، وقد مرَّ عليه ٨٤ يومًا دون أن يصطاد سمكةً واحدةً. في الأيام الأربعين الأُولى كان معه صبيٌّ. لكن بعد ٤٠ يومًا دون سمكةٍ واحدةٍ، قال الوالدان لابنهما بنبرةٍ أكيدةٍ وحاسمةٍ: «إنَّ العجوز يفتقِر إلى أيِّ شكلٍ مِن أشكال الحظ». وقد ذهب الصبي تبعًا لأوامرهما إلى قاربٍ آخر، كان قد اصطاد ثلاث سمكاتٍ في الأسبوع الأوَّل مِن رحلته. دائمًا ما كان يشعر الصبي بالحزن عندما يرى العجوز عائدًا كلَّ يومٍ بقاربه فارغًا. دائمًا ما كان يذهب إليه؛ ليساعده في حمل شباك الصيد الملفوفة، عصا الصيد، رمح اصطياد الحيتان، أو الشراع الملفوف حول صاري المركب. كان الشراع مُرقَّعًا بأكياس الدقيق، ملفوفًا كما لو أنه عَلَمٌ لهزيمةٍ دائمةٍ.

كان العجوز نحيفًا وهزيلًا. لديه تجاعيدُ بارزةٌ أسفل رقبته. وعلى خدَّيه بقعٌ بُنِّيَّةٌ، مِن ذلك النوع الذي كانت تتسبب فيه انعكاسات الشمس على البحر في المناطق الاستوائية، وقد كانت آخذةً في الانتشار في الأسفل على

جانبَي وجهه. كانت هناك ندوبٌ على يديه، ظهرتْ كما لو أنها تجاعيدُ عميقةٌ مِن آثار استخدام الحبال في التعامل مع الأسماك الضخمة. لم تكن أيٌّ مِن هذه الندوب حديثةً. كانت كلها قديمةً. كما لو أنه قد مرَّت عليها عوامل التعرية في صحراء بلا حياةٍ.

كلُّ شيءٍ فيه كان عجوزًا، عدا عينيه اللتين كان لديهما نفْس لون البحر، كانتا مُبهجتينِ وغير قابلتينِ للهزيمة.

-سانتياجو.

ناداه الصبي عندما كانا يصعدان مِن مرسى القارب على الشاطئ.

-يُمكنني أن آتي معك ثانيةً. لقد جمعنا بعض المال.

علّم العجوز الصبي كيف يصطاد، وقد أحبه الصبيُّ كثيرًا.

-لا. أنت الآن مع قاربٍ محظوظٍ. ابقَ معه.

-ولكنَّكَ تذكر كيف قضيتُ ٨٧ يومًا دون سمكةٍ، وبعد ذلك اصطدنا أسماكًا كبيرةً كل يومٍ لمدة ٣ أسابيع.

-أتذكَّر. أنا أعلم أنك لم تتركني لأنك لا تثق بي.

-لقد كان أبي هو مَن جعلني أتركك. أنا مجرَّد صبيٍّ، ويجب أن أُطيعه.

-أعلم. إنه أمرٌ طبيعيٌّ تمامًا.

-ليس لديه إيمانٌ بما حدث معنا.

-نعم. أفهم ما فكَّر فيه. ولكن نحن لدينا. أليس كذلك؟

-نعم. هل يمكن أن أُقدِّم لك كأسًا مِن البيرة بالمقهى، وبعدها نأخذ أدوات الصيد، ونعود بها إلى المنزل؟

-لم لا. لآخذْ كأسًا مِن البيرة بين الصيَّادين.

جلسا على رصيف المقهى، الكثير مِن الصيَّادين كانوا يسخرون مِن العجوز، لكنه لم يبدُ غاضبًا مِن ذلك. آخرون، الصيَّادون الأكبر سنًّا كانوا ينظرون إليه بشيءٍ مِن الحزن، لكنهم لم يُظهِروا ذلك، وتحدثوا معه بلطفٍ عن الأحوال، وعن الأعماق التي وصلوا إليها والطقس المعتدل.

الصيَّادون الناجحون في تلك الأيام هم الذين كانوا يذبحون أسماك المارلين التي يصطادونها ويضعونها بطولها على لوحين مِن الخشب، حيث يقف عند طرفَي كلِّ لوحٍ رجلان، ومِن ثَمَّ يحملونها إلى مكانٍ مُحدَّدٍ ينتظرون فيه عربات الثلج التي تأخذها إلى أسواق هافانا. أما هؤلاء الذين يصطادون أسماك القرش، فكانوا يأخذونها إلى مصنع أسماك القرش في الناحية الأُخرى مِن الخليج الصغير، حيث يرفعونها عن طريق الحبال وبكرات الرفع إلى المصنع، وهناك كانت تُنزع أكبادها، وتُقطَّع زعانفها، وتُسلَخ جلودها، ثُمَّ يُقطَّع لحمها شرائح للتمليح.

عندما يكون اتجاه الرياح إلى الشرق كانت الرائحة تأتي قويةً مِن مصنع أسماك القرش عبر الميناء. لكن اليوم الرائحة خفيفةٌ للغاية؛ لأنَّ الرياح قد عادت إلى الشمال ثُمَّ هدأتْ، والجو ممتعٌ ومشمسٌ على رصيف المقهى.

-سانتياجو.

-نعم.

كان العجوز جالسًا مُمسِكًا بكأس البيرة، ويُفكِّر في السنين التي مضتْ.

-هل يمكن أن أذهب وأُحضِر بعض السردين لك مِن أجل الغد؟

- لا. اذهب، والعب البيسبول. مازال يُمكنني التجديف، وروجيليو سوف يرمي الشِّبَاك.

-أودُّ أن أذهب وأُحضِر السردين لك. إن لم أكن أستطيع الصيد معك، فأودُّ أن أخدمك بطريقةٍ ما.

- لقد اشتريتَ لي كأسًا مِن البيرة. أنت رَجُلٌ بالفعل، ولا تحتاج إلى إثبات ذلك.

-كم كان عمري عندما أخذتْني معك لأوَّل مَرَّةٍ على القارب؟

- خمس سنواتٍ. كنتَ يومها قريبًا مِن أن تُقتَل عندما كنتُ أصطاد سمكةً ضخمةً. كنتُ أُحاول أن أُسيطر عليها، وأُدخِلها القارب بشيءٍ مِن السذاجة. كانت على وشك أن تُمزِّق القارب إلى قطعٍ. هل يُمكنك أن تتذكَّر؟

- يُمكنني أن أتذكَّر تلك الضربات العنيفة التي أحدثها ذيلها، انكسار مقعد المـُجدِّف، والصخب الذي صاحب كل ذلك. أستطيع أن أتذكَّر عندما ألقيتَ بي في مُقدِّمة القارب عند الخيوط الملفوفة الرطبة. كنتُ حينها أشعر أنَّ القارب كله ينتفض ويهتز. الصخب الذي صاحب ضرباتك المستمرة لها بالهراوة كان يُشبه محاولة قطع شجرةٍ في الغابة، أتذكَّرُ أيضًا أنَّ رائحة الدم كانت قويةً، تملأ المكان.

- هل تتذكَّرُ حقًّا كل ذلك، أم أنني قد أخبرتُكَ به مِن قَبْلُ؟

- أتذكَّرُ كلَّ شيءٍ مِن المَرَّة الأُولى التي ذهبتُ فيها معك.

نظر إليه العجوز بعينيه الحانيتين الواثقتين اللتين لوحتهما الشمس.

– لو كنتَ ابني، كنتُ سأخذك ونغامر، لكنَّك ابن والدك ووالدتك، وتعمل مع قاربٍ محظوظٍ.

– هل يُمكن أن أجلب السردين؟ أنا أعلم أين يُمكنني أيضًا أن أعثر على أربع سمكاتٍ تصلح لأن تكون طُعْمًا.

– لديَّ مِن الطُّعم ما تبقَّى مِن اليوم. وضعتهم في الملح في الصندوق.

– اتركني أُحضر أربعةً لا تزال طازجةً.

– واحدةٌ فقط. قالها وأمله وثقته لم يذهبا أبدًا. على العكس، كانا يتجدَّدان الآن كلما تصاعد النسيم.

– اثنتان.

– اثنتان، ولكنَّك لن تسرقهما، أليس كذلك؟

– كنتُ أودُّ لو أستطع فعل ذلك حقًّا، ولكنني سأشتريهما.

– شكرًا لك.

تساءل داخله متى أصبح سهل المراس؟ لم يستطعْ أن يُجب، لكنه كان يعلم أنه قد أصبح كذلك بالفعل، وأنَّ الأمر ليس شائنًا، ولا يحمل أيَّ تقليلٍ مِن كبرياءٍ حقيقيٍّ.

–غدًا، سيكون يومًا جيدًا مع هذا الجو المعتدل.

سأله الصبي: إلى أين ستذهب؟

– أودُّ أن أُبحر غدًا إلى مناطق أكثر عمقًا، أودُّ أن أكون مستعدًّا عندما تُغيِّر الرياح اتجاهها. لذا، يجب أن أكون في الخارج وجاهزًا قبل أن تُشرِق.

- سوف أحاول أن أجعل الصيَّاد الذي أعمل معه يدخل إلى مناطق أكثر عمقًا، وقتها يُمكننا أن نساعدك لو اصطدت شيئًا كبيرًا.

-هو لا يُحبُّ أن يعمل بعيدًا جدًّا عن الشاطئ.

-لا يُحبُّ فعلًا، لكنني سأدَّعي أنني رأيتُ شيئًا لا يُمكنه أن يراه، طائرًا يُحاول صيد شيءٍ ضخمٍ مِن الماء. أو أجعله يُطارد دولفين مثلًا.

-هل بصره بهذا السوء؟

-هو تقريبًا أعمى.

-أمرٌ غريبٌ، لا أعرف أنه قد ذهب أبدًا لاصطياد السلاحف البحرية. فعادةً ما يكون اصطيادها هو السبب في ضعف البصر.

-لكنك كنتَ تصطادها لسنواتٍ عند ساحل «موسكيتو»، وبصرُكَ جيِّدٌ.

-أنا رَجُلٌ عجوزٌ غريبٌ.

لكنك قويٌّ كفاية الآن لاصطياد سمكةٍ كبيرةٍ، أليس كذلك؟

-أظن ذلك. كما أنَّ هناك الكثير مِن الحيل مع القوة.

-دعنا نأخذ الأشياء ونعود بها إلى المنزل، وبعدها يُمكنني أن آخذ شبكة الصيد وأخرج للحصول على السردين.

التقطا المعدات مِن القارب. حمل العجوز السارية على كتفه، وحمل الصبي الصندوق الخشبي مع الشِّبَاك البنية الملفوفة والمُضفَّرة بقوَّةٍ وعصا الصيد ورمح اصطياد الحيتان مع مجموعةٍ مِن العصيّ التي يُركَّب فيها الرمح.

كان الصندوق به طُعْمٌ تحت مؤخرة القارب جنبًا إلى جنبٍ مع الهراوة

التي تُستخدم للسيطرة على السمك الكبير عندما يُربط بجانب القارب. لم يكنْ هناك أحدٌ مِن أهل البلدة يودُّ أن يسرق العجوز، لكنه كان مِن الأفضل أن يأخذ الشراع والخيوط الثقيلة معه إلى المنزل. كما أنَّ الندى سيئٌ بالنسبة لهما. على الرغم مِن أنه كان مُتأكِّدًا مِن حقيقة أن لا أحدًا يودُّ أن يسرقه، ظلّ العجوز يشعر أنَّ هناك إغراءً لا يفهمه تجاه أن يترك عصا الصيد والرمح في القارب.

صعدا الطريق معًا إلى كوخ العجوز، دخلا مِن الباب الذي كان مفتوحًا. أمال العجوز الشراع على الحائط، ووضع الصبي الصندوق والأشياء الأُخرى بجانبه. كان الصاري يُقارب في طوله إحدى غرف الكوخ. أمَّا الكوخ نفْسه، فكان مبنيًّا مِن جذوعٍ قويةٍ مِن النخل الملكي والتي تُسمَّى «جوانو»، وفي داخله كان هناك سريرٌ ومنضدةٌ وكرسيٌّ واحدٌ ومكانٌ على الأرضية مُتَّسِخٌ مِن أثر الطبخ بالفحم. على حوائط «الجوانو» البنية والمستوية وذات الأغصان المتداخلة والألياف القوية، كان هناك صورةٌ ليسوع المسيح والقلب المقدس، وأُخرى للعذراء وهي تحمل يسوع الطفل. كانت هذه الصور آخر ما تبقَّى مِن زوجته. يومًا ما، كان هناك صورةٌ ملونةٌ لزوجته على الحائط. لكنه أنزلها مِن مكانها؛ لأنها كانت تُشعره بالوحدة كلما نظر إليها، فوضعها في ركنٍ على رفٍّ تحت قميصٍ نظيفٍ له.

-ماذا لديك لتأكله؟

-طبقٌ مِن الأرز الأصفر والسمك. هل تريد بعضًا منهم؟

-لا، سآكل في البيت. هل تودُّ أن أشعل النار مِن أجل أن تجهزهما؟

-لا، سوف أقوم بذلك لاحقًا. أو ربما آكل الأرز باردًا.

-هل يمكن أن آخذ شبكة الصيد؟

-بالطبع.

لم يكن هنك شبكة صيد. كما أنَّ الصبي يتذكر متى باعها العجوز. لكنهما كانا يقومان بهذه اللعبة المُتخيَّلة كلَّ يومٍ. لم يكنْ هناك طبق أرز أو سمك، وكان الصبي يعلم ذلك أيضًا.

-٨٥ رقم حظٍّ.

-سوف أجلب شبكة الصيد، وأذهب؛ لأحضر السردين. هل ستجلس في الشمس عند باب الكوخ؟

-نعم، لدي جريدة الأمس، سوف أقرأ فيها أخبار البيسبول.

لم يكن الصبي يعلم إنْ كانت جريدة الأمس جزءًا مِن اللعبة المتخيلة أو لا. لكنَّ العجوز أخرجها مِن تحت السرير.

-بريكو أعطاني إياها.

-سوف أعود عندما أجلب السردين، وسوف أضع ما يخصني ويخصك منه في الثلج، ويُمكن أن نتشاركهما في الصباح. يُمكنك أن تخبرني عن البيسبول عندما أعود.

-«اليانكيز» لا يُمكن أن ينهزموا.

-ولكني أخشى مِن «إنديانز أوف كليفلاند».

-كن واثقًا في «اليانكيز» يا بُنيَّ. فكِّرْ في «دي ماجيو» العظيم.

-أخشى مِن «تايجرز أوف ديترويت» و«إنديانز أوف كليفلاند».

-كُن يقظًا. أو أنك ستخاف مِن «ريدز أوف سيسيناتي» و«سوكس أوف شيكاجو».

-ادرسْ وضع المنافسة بينهم جيدًا. وأخبرني عندما أعود.

-هل تعتقد أننا يجب أن نشتري تذكرة يانصيب برقم ٨٥؟ غدًا سيكون اليوم الـ ٨٥.

-يُمكننا أن نفعل ذلك، ولكن ماذا عن الـ ٨٧ رقمك القياسي؟

-لا يُمكن أن يحدث الأمر نفْسه مرتين. هل تعتقد أنه يمكنك أن تجد ورقة يانصيب برقم ٨٥؟

-يُمكن أن أطلب واحدةً.

-ورقة واحدة. هذه ستكلفنا دولارين ونصف. مَن يمكن أن نقترض منه هذا المبلغ؟

-الأمر سهلٌ. يُمكنني دائمًا أن أقترض دولارين ونصف.

-أعتقد أنه يُمكنني ذلك أيضًا. ولكنني سأحاول ألَّا أقترض. في البداية تقترض، ومِن ثَمَّ تتسول.

-ابق دافئًا أيها العجوز. تذكر أننا في سبتمبر.

-هو شهرٌ حيث الصيد يكثر في المحيط. أمَّا في مايو، يُمكن لأيِّ شخصٍ أن يكون صيَّادًا.

-سأذهب الآن لأحضر السردين.

عندما عاد الصبي، كان العجوز نائمًا على الكرسي، والشمس قد غربت. أخذ الصبي بطانية الجيش القديمة، وغطَّى العجوز بها حتَّى كتفيه.

كان كتفاه غريبين، لا يزالان قويين على الرغم مِن أنهما عجوزان. ورقبته لا تزال قويةً، ولم تظهر التجاعيد كثيرًا عندما كان العجوز نائمًا ورأسه متدليةً للأمام قليلًا.

كان قميصه مُرقَّعًا في مواضع كثيرةٍ منه مثل حال شراع قاربه، وبدا أنَّ الرُّقَعَ قد بهتت تحت وطأة الشمس. كانت رأس العجوز بها كهولةٌ ظاهرةٌ، ومع عينيه اللتينِ كانتا مغلقتينِ، بدا وكأن وجهه بلا حياةٍ. الجريدة على ركبتيه تحملها ذراعاه، وقدماه حافيتان، بينما النسيم يبعث شيئًا مِن الخدر هذا المساء.

تركه الصبي في مكانه، وذهب. عندما عاد كان العجوز مازال نائمًا.

-استيقظ يا رجل. هزَّه الصبي العجوز مِن إحدى ركبتيه.

فتح العجوز عينيه للحظةٍ. كان كمَن أتي مِن حلمٍ بعيدٍ. ثُمَّ ابتسم.

-ماذا أحضرتَ معك؟

-طعام. علينا أن نتناول العشاء.

-لستُ جائعًا للغاية.

-هيَّا يا رَجُل، فلتأكل. لا يُمكن أن تذهب للصيد دون تناول شيءٍ.

-يُمكنني ذلك.

اعتدل العجوز في نومته، وتناول الجريدة، وطواها. ثُمَّ طوى البطانية.

-اترك البطانية حولك. لن تذهب إلى الصيد دون أن تأكل طالما كنتُ حيًّا.

-إذنْ عِشْ طويلًا، وانتبه لحالك. ماذا سنأكل؟

-فول أسود، أرز، موز مقلي، وطبق مِن الخضار واللحم المطهي.

كان الصبي قد أحضر الطعام في حافظةٍ معدنيةٍ مِن طابقينِ مِن المقهى. وكان في جيبه مجموعتان مِن السكاكين والمعالق والشوك ملفوفتين بمناديل ورقية.

-مَن الذي أعطاك كل هذا؟

-مارتن، صاحب المقهى.

-يجب أن أشكره.

-لا تقلق، فأنا شكرتُهُ بالفعل، لا تحتاج إلى أن تشكره.

-سوف أُعطيه أفضل قطعةَ لحمٍ عندما أصطاد سمكةً كبيرةً، هل يُمكنه أن يقوم بذلك مِن أجلنا أكثر مِن مَرَّةٍ؟

-أعتقد ذلك.

-يجب أن أعطيه شيئًا أكثر مِن قطعة اللحم إذنْ. فهو يراعينا كثيرًا.

-أَرْسَلَ معي أيضًا زجاجتينِ مِن البيرة.

-أُحبُّ البيرة في العلب المعدنية.

-أعرف ذلك. ولكن هذه بيرة «هاتوي»، ويجب عليَّ أن أُعيد الزجاجات له بعد أن نشربها.

-هذا لطفٌ مِنك. هل يمكن أن نأكل؟

-كنت سأسألك عن ذلك أيضًا. لم أرغب في فتح الحافظة حتَّى تكون جاهزًا.

-أنا جاهزٌ الآن. فقط أحتاج بعض الوقت للاستحمام.

أين سيستحم؟ فخط الإمداد بالماء على بعد شارعين مِن الطريق. يجب أن يكون لدينا ماءٌ هنا مِن أجله، وصابونةٌ، ومنشفةٌ جيدةٌ. لماذا أنا مُقصِّرٌ في حقه إلى هذا الحد؟ يجب أن أُحضر له قميصًا آخر ومعطفًا للشتاء وحذاءً وبطانيةً أُخرى.

-طبق الخضار باللحم ممتازٌ.

-أخبرني عن البيسبول.

-في الدوري الأمريكي: اليانكيز متصدرون كما قلتُ لك.

قالها العجوز بسعادةٍ.

-لقد خسروا اليوم.

-هذا لا يعني شيئًا. دي ماجيو العظيم كما هو، وسيعود بهم مَرَّةً أُخرى.

-لديهم لاعبان آخران في الفريق.

-بالتأكيد، ولكن هو مَن يصنع الفارق. في الدوريات الأُخرى، بين بروكلين وفيلادلفيا يجب أن تكون مع بروكلين. ولكن بعد ذلك أُفكِّر في «ديك سيسلر» وركضه العظيم في الملعب القديم.

-ليس هناك أيُّ لاعبٍ في مستواه. لقد كان لديه رمية كرةٍ هي الأطول بين كل ما رأيته في حياتي.

-هل تتذكر عندما اعتاد أن يأتي إلى هنا في المقهى. أردتُ أن آخذه في رحلة صيدٍ، ولكنني ترددتُ في أن أعرض عليه الأمر. وبعدها سألتُكَ أن تعرض عليه ولكنك أيضًا كنتَ مترددًا.

-أعلم ذلك. لقد كان خطأً كبيرًا مِن جانبنا. كان مِن الممكن أن يقبل

دعوتنا، وحينها يمكننا أن نحتفظ بهذه الذكرى طوال حياتنا.

-أودُّ أن آخذ دي ماجيو العظيم في رحلة صيدٍ. يقولون إنَّ والده كان صيَّادًا. ربما كان فقيرًا مثلنا، وفي هذه الحالة يمكنه أن يتفهم الأمر.

-سيسلر العظيم لم يكنْ والده فقيرًا أبدًا، وكان يلعب في الدوريات الكُبرى عندما كان في مثل عمري.

-عندما كنتُ في مثل عمرك، كنتُ أقف على صاري سفينةٍ. كانت سفينةٌ ضخمةٌ تدور حول أفريقيا، وقد شاهدتُ خلال رحلاتها الأُسُود على الشواطئ في المساء.

-أعلم ذلك، لقد أخبرتني.

-هل نتحدث عن أفريقيا أم البيسبول؟

أُفضِّل الحديث عن البيسبول. أخبرني عن جون ج. ماكجرو. (ج هنا تعود على «جوتا»).

-اعتاد أن يأتي هو أيضًا للمقهى أحيانًا منذ زمنٍ، ولكنه كان فظًّا وحادًّا في طريقة حديثه وصعبًا للغاية عندما يشرب. كان ذهنه كله مُعلَّقًا بالخيول كما هو مُعلَّقٌ بالبيسبول. على الأقل كان لديه قوائم بأنواع الأحصنة طوال الوقت في حافظته، وبين حينٍ وآخر كان يتحدث عن أسمائها في الهاتف.

-كان مديرًا فنيًّا عظيمًا. أبي يعتقد أنه كان الأفضل.

-لأنه أتى إلى هنا في كثيرٍ مِن الأوقات، لو «دوروش» استمر في القدوم إلى هنا كلَّ عامٍ، كان والدك سيقول أنه الأفضل.

-مَن هو المدير الفني الأعظم فعلًا، «لوكر» أم «مايك جونزالز»؟

-أظن أنهما في نفْس المستوى.

-والصيَّاد الأعظم هو أنت.

-لا. أعرف أنَّ هناك آخرين أفضل مني.

-هذا غير ممكنٍ. هناك الكثير مِن الصيَّادين الجيدين. وبعضهم فقط هم صيَّادون عظماء. ولكن هناك فقط أنت.

-أشكرك. أنتَ تجعلني سعيدًا. آمل ألَّا تأتي سمكةٌ كبيرةٌ بالقدر الكافي لتجعلك مخطئًا في ظنك بي.

-ليس هناك سمكةٌ يُمكنها ذلك إن كنتَ لا تزال قويًّا كما أخبرتني.

-ربما لا أكون لا أزال قويًّا كما أعتقد. ولكن لدي الكثير مِن الحيل، كما لدي عزيمةٌ ومثابرةٌ.

-يجب أن تذهب إلى النوم الآن؛ لكي تكون مفعمًا بالنشاط في الصباح. وسوف آخذ الأشياء، وأعود بها إلى المقهى.

-ليلة هانئة إذنْ. سوف أوقظك في الصباح.

-أنتَ مُنَبِّهي.

-السِّنُّ هي المنبه. لماذا يستيقظ كبار السنِّ مبكرًا؟ هل هذا لأنهم لم يعدْ لديهم الكثير مِن الأيام المـُقبِلة؟

-لا أعلم. كل ما أعلمه هو أنَّ الشباب ينامون مُتأخِّرًا وبصعوبةٍ.

-يُمكنني أن أتذكَّر ذلك، سوف أوقظك في الوقت نفْسه مثلما اعتدنا كل يومٍ.

-أنا لا أُحبُّ أن يوقظني الصيَّاد الذي أعمل معه. الأمر يبدو كما لو أنني

أقل شأنًا منه.

-يُمكنني تفهم ذلك.

-نم جيدًا أيها العجوز.

خرج الصبي. كانا قد أكلا على الطاولة بدون أيِّ إضاءةٍ. خلع العجوز سرواله، وذهب إلى النوم في الظلام. طوى السروال، وجعله كوسادةٍ، ووضع الجريدة داخله. لف نفْسه في البطانية، ونام على جرائدَ قديمةٍ تُغطِّي الصفائح الزنبركية لجسد السرير المعدني.

نام العجوز سريعًا. حلم بأفريقيا عندما كان صبيًّا، الشواطئ الذهبية الممتدة، والشواطئ شديدة البياض لدرجةٍ تُؤلم العين، والخلجان المرتفعة والجبال البنية العظيمة. لقد عاش طويلًا، وأصبح هذا الشاطئ يأتيه في كل ليلةٍ في أحلامه. يستمع لصوت الأمواج، ويرى القوارب المحلية تأتي لترسو فيه. يشم رائحة القطران والحبال القديمة المهترئة على سطح السفينة كما لو كان نائمًا على هذا السطح ويشم رائحة أفريقيا ونسيم الأرض التي تجلبه معها في كل صباحٍ.

* * *

عادةً، عندما يستنشق العجوز النسيم، يستيقظ ويرتدي ملابسه ويذهب لإيقاظ الصبي. لكن الليلة جاءت رائحة النسيم مُبكِّرًا للغاية. شعر العجوز بذلك الأمر، فمضى يُكمِل حلمه حيث كان يرى القمم الجليدية لجبال الجزر التي ترتفع وسط المحيط ووراءها، رأى موانئَ مختلفةً ومرسى سفن جزر الكناري.

لم يعدْ يحلم بالعواصف أو النساء أو الأحداث الكبيرة أو الأسماك العظيمة أو المشاجرات أو مسابقات مِن الأقوى أو حتَّى بزوجته. فقط أصبح يحلم بالأماكن والأسود على الشاطئ يلعبون كما لو كانوا قططًا صغيرةً في الغسق. أحبهم للغاية كما أحب الصبي. ولكنه لم يحلم بالصبي مِن قبل. استيقظ دون معاناةٍ، ونظر للقمر عبر باب الكوخ المفتوح، وبسط سرواله، وارتداه. تبوَّل خارج الكوخ، ثُمَّ صعد الطريق ليوقظ الصبي. كانت به رجفةٌ مِن برد الصباح، ولكنه يعلم أنَّ حتَّى الارتجاف سيجعله أدفأ. كما أنه لن يمرَّ وقتًا طويلًا قبل أن ينزل إلى القارب ويبدأ في التجديف، حينها ستُدفئه جيدًا حركة التجديف المستمرة.

كان باب المنزل، حيث يقطن الصبي، غيرَ مُغلَقٍ. فتحه العجوز، ودخل بقدميه الحافيتين بهدوءٍ. كان الصبي نائمًا على ذلك النوع مِن السرائر الذي يَسْهَلُ نقله عند السفر. كان في الغرفة الأُولى مِن المنزل، فاستطاع العجوز أن يراه بوضوحٍ على ضوء القمر الآخذ في الاحتضار مع صعود النهار. أمسك بإحدى قدميِّ الصبي بلطفٍ، وضغط عليها بعض الشيء، حتَّى استيقظ الصبي، واستدار ناظرًا إليه. أومأ العجوز، فأخذ الصبي بنطاله مِن على المقعد، وجلس على السرير ليرتديه.

خرج العجوز مِن الباب، ومِن بعده الصبي. كان الصبي ما يزال يُحاول التخلص مِن آثار النوم شاعرًا بالنعاس. وضع العجوز ذراعه على كتف الصبي ليستند عليه.

- أنا آسفٌ.

- لا تقل ذلك، هذا ما يجب على الرجل أن يفعله.

نزلا الطريق إلى كوخ العجوز، وطوال سيرهما كان الظلام دامسًا. ها هما رجلان حافيا الأقدام سائران في طريقهما؛ ليحملا أدوات الصيد الخاصة بهما إلى قاربهما.

عندما وصلا إلى كوخ العجوز، أخذ الصبي لفائف الخيط في السلة ورمح اصطياد الحيتان وعصا الصيد، بينما حمل العجوز السارية والشراع الملفوف على كتفيه.

سأله الصبي: هل تود تناول بعض القهوة؟

- لنضع الأشياء في القارب، ثُمَّ نحضر بعضًا منها.

كانوا يُحضرون القهوة المجهزة باللبن المجفف مِن مكانٍ يُقدِّمها للصيَّادين في الصباح الباكر قبل أن يفتح المقهى أبوابه.

- كيف كان نومك أيها العجوز؟

كان الصبي الآن أكثر نشاطًا وانتباهًا على الرغم مِن أنه كان مِن الصعب أن يطرد النعاس.

- جيدٌ للغاية يا مانولين. أشعر أنني أكثر ثقةً في نفْسي اليوم.

- أنا أيضًا أشعر بذلك. الآن يجب أن أُحضر السردين الخاصَّ بكلينا وأسماك الطُعم الطازجة. فالصيَّاد الذي أعمل معه يجلِب أدوات الصيد بنفْسه. لم يرد لأحدٍ أن يحمل أيَّ شيءٍ معه.

- نحن مختلفانِ، تركتُكَ تحمل أدوات الصيد إلى القارب منذ كنتَ في الخامسة مِن العمر.

- أعلم ذلك. سوف أعودُ، يُمكنك طلب كوبٍ آخر مِن القهوة، لدينا رصيدٌ عندهم.

مشى الصبي حافي القدمينِ على الصخور المرجانية حتَّى محل حفظ الثلج، حيث تُخزَّن أسماك الطُّعم فيه. شرب العجوز قهوته على مهلٍ. هذا الكوب كل ما سيتناوله طوال اليوم. هو يُدرك ذلك ويضعه في اعتباره جيدًا. منذ وقتٍ طويلٍ أصبح الأكل يُصيبه بالملل، ولم يعد يحملْ معه غداءً على القارب. لديه زجاجة مياهٍ في مُقدِّمة القارب. كان هذا ما يرى أنه يحتاج إليه طوال يومه.

عاد الصبي الآن مُحضِرًا السردين وسمكتَي الطُّعم ملفوفتين جميعًا في

ورق جرائد. نزلا الطريق حتَّى وصلا إلى القارب شاعرين بالحصى تحت قدميهما. رفعا القارب، وجعلاه ينزلق في الماء.

- حظًّا سعيدًا أيها العجوز.

- حظًّا سعيدًا.

أخذ العجوز يتأكَّد بعدها مِن أنَّ حبال المجدافين مربوطةٌ بإحكامٍ، ومال للأمام عكس ضربات المجدافين في الماء، وبدأ في الخروج مِن الميناء في ذلك الظلام الذي كان يَلُفُّهُ. في الوقت نفْسه، كانت القوارب الأُخرى في طريقها للخروج مِن بقية الشواطئ إلى ماء البحر. كان العجوز يسمع ضربات مجاديفها وحركاتها في الماء على الرغم مِن أنه لم يكن يستطيع رؤيتها في ذلك الظلام الدامس والقمر الآن خلف التلال.

أحيانًا كان يسمع أحدهم يتحدَّث في إحدى القوارب. لكن الغالبية كانت صامتةً، لو استثنينا ضربات المجاديف في الماء. انتشرت القوارب جزئيًّا بعدما خرجتْ مِن لسان الميناء، واتجه كلٌّ واحدٍ منها إلى مكانٍ ما في المحيط؛ آملًا أن يجد فيه صيد اليوم. كان العجوز يعلم أنه سيذهب اليوم بعيدًا أكثر ممَّا هو معتادٌ، وسيترك خلفه رائحة الأرض، ويُجدِّف إلى أماكن أكثر عمقًا. كان يُفكِّر في ذلك ونسيم الصباح النقي للمحيط يهب عليه. رأى الأعشاب الفسفورية في الخليج وهو يُجدِّف فوق بقعةٍ يُسمِّيها الصيَّادون «البئر العظيم»؛ لأنها ذات عمقٍ مفاجئٍ، يزيد عن ٧٠٠ قامة (وحدة قياسٍ للمياه.) حيث تتجمَّعُ كل أنواع الأسماك في تلك البقعة؛ بسبب قوة دوَّامات التيار المائي على حوافها الصخرية. تتجمَّع هنا أنواعٌ مختلفةٌ مِن القريدس والأسماك التي تصلح للاستخدام كطُعْمٍ، وفي بعض

الأوقات قطعانٌ مِن الحبَّار خاصَّةً الكاليمار. تكون في الجزء الأعمق مِن البقعة، ولكنها تأتي قريبةً مِن السطح في الليل؛ لتتغذَّى عليها كل الأسماك المتجولة في ذلك الوقت.

في ذلك الظلام، استطاع العجوز أن يشعر بالصباح وهو يولد عندما كان يُجدِّف ويسمع بين حينٍ وآخر صوت اضطرابٍ في الماء بسبب الأسماك الطائرة. تلك التي تقفز مِن الماء، وتعود إليه مِن جديدٍ. وقد بدت أنها ترتفع أكثر مِن المعتاد في ذلك الظلام. كان مغرمًا بهذه الأسماك الطائرة. هي بالنسبة له الصديق الرئيس في المحيط. في الوقت نفْسه، كان يشعر بالأسف على الطيور. خاصَّةً الصغيرة والرقيقة منها مثل «خطَّاف البحر». تلك التي تطيرُ وتبحث عن طعامٍ، ولكنها غالبًا لا تجد شيئًا، كان يعتقد أنَّ الطيور تعيش حياةً أصعب ممَّا نعيش. باستثناء الطيور المتلصصة والكبيرة القوية منها. لماذا هناك طيورٌ بهذه الرقة والجمال بينما المحيط قاسٍ للغاية؟ إنها لطيفةٌ وجميلةٌ جدًّا. ولكنها لا تستطيع أن تكون قويةً، وتأتي فجأةً مثل تلك الطيور التي تُحلِّق، وتغطس، وتصطاد. لقد كانت أصواتها الصغيرة الحزينة قد صُنِعَتْ مِن أجل أن تُغرِّد فوق البحر.

دائمًا ما فكَّر في البحر «*لا مار- La mar*» ذلك الاسم الأنثوي كما يقول الناس هنا بالأسبانية عندما يحبونها. على الرغم مِن أنهم في بعض الأوقات يقولون أشياءَ سيئةً عنه. ولكنهم عادةً ما يقولون إنها امرأةٌ. بعض الصيَّادين الشباب الذين يستخدمون العوَّامات والقوارب ذات المحركات في إبحارهم، والتي اشتروها عندما كان بيع أكباد أسماك القرش يجلب مالًا كثيرًا، أسموها «*إل مار - El mar*» وهو مُسمًّى ذكوريٌّ. يتحدثون

عنها كما لو أنها منافسٌ أو مكانٌ أو حتَّى عدوٌّ. ولكنَّ العجوز دائمًا ما اعتقد في أنوثتها وبعض الأشياء التي تفعلها له كان لها أثرٌ عظيمٌ. وإذا فعلت شيئًا قاسيًا، فهذا لأنَّ الأمر يكون خارج قدرتها على المساعدة في تلك اللحظة. كان يرى كيف يُؤثِّر فيها القمر، كما لو أنها امرأةٌ. هكذا كان يراها.

كان يُجدِّف بثباتٍ وبدون جهدٍ يُذكر. فقط حافظ على سرعته على سطح المحيط الذي كان أملسًا باستثناء دوَّاماتٍ لحظيةٍ. ترك التيَّار يقوم بثلث الجهد، وعندما بدأت الشمس تُشرِق، رأى أنه وجد نفْسه أبعد ممَّا كان يأمل في تلك الساعة.

لقد حاولتُ الصيد في تلك البئر العميقة لأسبوعٍ، ولم أحصلْ على شيءٍ. اليوم سوف أحاول الصيد أبعد مِن المعتاد حيث أسراب البونيتا والألباكور (أنواع مِن التونة). رُبَّما يكون مِن نصيبي صيد واحدةٍ كبيرةٍ منها.

قبل أن تُشرِق الشمس تمامًا، أخرج أسماك الطُّعْم الخاصة به، وانجرف مع التيار. أنزل واحدةً منها على عمق ٤٠ قامةً، والثانية على عمق ٧٥، والثالثة والرابعة في ذلك الماء الأزرق الداكن على عمق ١٠٠ و١٢٥ قامة. كلُّ واحدةٍ منهنَّ مُعلَّقةٌ رأسيًّا لأسفل في عرقوب خيط صنَّارة صيدٍ، مربوطًا بقوةٍ، والجزء المنظور منه مُغطًّى بالسردين الطازج.

كلُّ جزءٍ مِن خيط الصيد كان ممتلئًا بطُعْمٍ حلو الرائحة وجيد المذاق، يُمكن أن تشعر به أيُّ سمكةٍ كبيرةٍ.

كان الولد قد أعطاه سمكتينِ مِن نوع التونة، وقد علَّقهما في الجزئين الأكثر عمقًا مِن الخيط. أمَّا السمكتان في العمقين الآخرين؛ فقد كان قد استعملهما مِن قَبل، ولكنهما لا تزالانِ في حالةٍ جيدةٍ، كما أنَّ لديه سردينًا

ممتازًا، سيكون مناسبًا ليعطي لهما مذاقًا ورائحةً جذابةً. كان هناك أنواعٌ مختلفةٌ مِن الطُّعْم ينتظر أن يستخدمها العجوز؛ آملًا في أن تأتي إليه بأسماكٍ كبيرةٍ. كان كلُّ خيطٍ في نحالة قلمٍ رصاصٍ كبيرٍ، ملفوفٍ حول عصا خضراء، حيث يُمكن للعجوز أن يشعر بأيِّ حركةٍ أو لمسةٍ للطُّعم التي سوف تَهَزُّ العصا. لكلِّ خيطٍ ٤٢ قامةً مِن اللفائف، كما أنَّ هناك لفائف أُخرى احتياطيةً لو احتاج العجوز إليها. فلو اصطاد سمكةً كبيرةً يمكنه مطاردتها على بعد يصل لـ ٣٠٠ قامة مِن الخيوط.

أخذ العجوز يشاهد العصيَّ غاطسةً بجانب القارب، بينما هو يُجدِّف بهدوءٍ؛ لِيحافظ على الخيوط مستقيمةً، فتكون كلُّ واحدةٍ منها في عمقها المناسب. يبدو الأفق واضحًا تمامًا وفي أيِّ لحظةٍ سوف تُشرِق.

بدأت خيوط الضوء في الظهور بتردُّدٍ مِن وسط الماء. استطاع العجوز أن يرى القوارب الأُخرى. كانت لا تزالُ قريبةً مِن الشاطئ ومنتشرةً عبر تيَّار الماء. بعد ذلك أصبحت الشمس أكثر سطوعًا، وانعكس وهجها مِن على سطح الماء الأملس على عينَي العجوز، فآلمه ذلك. ممَّا جعله يُجدِّف دون أن ينظر إليها، مُوجِّهًا عينيه لأسفل حيث الماء. رأى الخيوط لا تزال متدليةً باستقامة كل واحدةٍ منها في مستوى عمقها في ذلك الماء المظلم. دائمًا ما حافظ على أن تظلَّ كذلك، كان الأفضل بين الجميع في فعل الأمر. أمَّا الصيَّادون الآخرون؛ فكانوا يتركون الطُّعم ينجرف مع تيَّار الماء. أحيانًا يكون الخيط على عمق ٦٠ قامةً وهم مفترضون أنه على عمق ١٠٠.

لكنه يعتقد أنَّ مِن الأفضل أن يُحافظ على أن تكون خيوطه في العمق الذي يريده وبدقةٍ.

لم يكنْ لديَّ حظٌّ في الأيام السابقة. ولكن مَن يعلم؟ ربما يكون الحظ معي اليوم. كلّ يومٍ هو يومٌ جديدٌ. إنه مِن الأفضل أن تكون محظوظًا بالتأكيد. ولكنني أُفضِّل أن أكون منضبطًا. وعندما يأتي الحظ أكون مُستعدًّا.

ارتفعت الشمس في السماء الآن أكثر بعد ساعتين مِن شروقها، ولكنها لم تؤذِ عينيه. عندما نظر إلى الشرق، كان هناك ثلاثة قوارب فقط على امتداد بصره، وقد رآها جميعًا بعيدةً عنه للغاية، قريبةً مِن الشاطئ.

طوال حياتي، ظلَّت عيناي تؤلماني مِن ضوء الشمس في بداية شروقها. ولكنهما ما تزالان جيدتين. في المساء، يُمكنني أن أنظر إليها على الرغم مِن أنَّ لها أثرًا قويًّا. ولكنها في الصباح تكون مؤلمةً.

ثُمَّ ما لبث أن رأى طائر «رجل الحرب» بجناحيه الأسودين يُحلِّق في السماء فوق رأسه. غطس الطائر سريعًا في الماء، ثُمَّ عاد للطيران بجناحيه للخلف خارجًا مِن الماء ليدور مِن جديدٍ فوق رأسه.

– لقد حصل على شيءٍ ما. لم يكن فقط ينظر إلى الماء.

جدَّف ببطءٍ وثباتٍ تجاه المكان الذي كان يُحلِّق فيه الطائر. لم يتعجل، حافظ على خيوطه مستقيمةً لأسفل. ولكنه أحدث اضطرابًا قليلًا. كان يعلم أنه لا يزال يصطاد بشكلٍ صحيحٍ على الرغم مِن أنه أسرع بعض الشيء مِن أيِّ مَرَّةٍ اصطاد فيها، ولم يستخدمْ مُساعدة طائرٍ.

أخذ الطائر يدورُ مُحلِّقًا في الهواء على ارتفاعٍ أعلى ممَّا كان عليه وأجنحته مُشرعةٌ دون حركةٍ تقريبًا. رأى العجوز فجأةً السمك الطائر يقفز مِن الماء، بينما أجنحة الطائر لا تزالُ كما هي مُشرعة دون حركةٍ وكأنها

يائسةٌ.

صاح العجوز: دولفين، إنه دولفين كبيرٌ.

حرَّك مجدافيه، وأحضر خيط صيدٍ مِن مقدمة القارب. كان السلك قويًّا، ومعه أيضًا خطَّافٌ مُتوسط الحجم طعَّمَهُ بسمكة سردين، ثُمَّ جهَّز خيطًا آخر، وتركه ملفوفًا في مقدمة القارب. عاد العجوز للتجديف ومتابعة الطائر ذي الجناحين الكبيرين حيث يُحلِّق الآن على مستوًى منخفضٍ قريبًا مِن الماء.

رأى الطائر يغطس مَرَّةً بعد أُخرى مائلًا بجناحيه؛ كي يحفظ اتِّزانه في كُلِّ مَرَّةٍ، ثُمَّ يُؤرجحها بشكلٍ غير مجدٍ في محاولة لحاقٍ بالسمك الطائر. رأى العجوز بروزًا طفيفًا في الماء عندما صعد الدولفين الكبير إلى السطح وهو يُلاحق الأسماك الطائرة، بينما هي تحاول الهرب منه. كان الدولفين يقطع الطريق على مسار السمكة وهي تخرج مِن الماء وتعود إليها حيث ينتظرها عندما تغطس مِن جديدٍ؛ لِيزيد مِن سرعته.

إنهم سربٌ كبيرٌ مِن الدلافين. منتشرون على مدى واسع، وفرصة نجاة السمك الطائر تبدو ضئيلةً. أما الطائر فليس لديه أيَّ فرصةٍ. الأسماك الطائرة كبيرةٌ بالنسبة له، ولن يتمكَّن مِن اصطيادها، كما أنها تتحرك بسرعةٍ عاليةٍ.

شاهد الأسماك الطائرة تخرج مِن المياه مَرَّةً بعد أُخرى، وما زال الطائر في محاولاته غير المجدية.

لقد ذهب السرب بعيدًا جدًّا الآن. إنهم يتحركون مبتعدين وبسرعةٍ كبيرةٍ. ولكن ربما التقط واحدةً شاردةً. وربما تكون هناك سمكةٌ كبيرةٌ

حولهم. سمكتي الكبيرة يجب أن تكون في مكانٍ ما.

كانت السحب الآن قد ارتفعت فوق اليابسة البعيدة، والشاطئ أصبح كخطٍّ أخضر، والتلال الرمادية الزرقاء مِن خلفه، والماء الأزرق داكنًا لدرجةٍ كاد أن يكون لونه أرجوانيًّا مِن شدة دُكنته. عندما نظر إلى الماء رأى عوالق حمراء منثورةً. كما كان انعكاس ضوء الشمس على الماء غريبًا في ذلك الوقت. راقب خيوط الصيد خاصته؛ ليتأكَّدَ من كونها لا تزال متدليةً على استقامتها في الماء. كان سعيدًا للغاية؛ لأن وجود العوالق يعني أنَّ هناك أسماكًا كبيرةً تحوم في ذلك المكان. الآن، الشمس أعلى والطقس جيدٌ، والسحب تتشكل فوق اليابسة. ولكنَّ السمك الطائر أصبح تقريبًا خارج مدى رؤيته، وليس هناك شيءٌ مرئيٌّ فوق سطح الماء. بعض النباتات العشبية المصفرة الذابلة هنا أو هناك وهذا الطائر «رجل الحرب» يُحلِّق بالقرب مِن قاربه. يُحلِّق بلطفٍ قريبًا مِن سطح الماء مُتسبِّبًا في اضطرابه على مدى ياردة.

-أفسدتِ المياه أيتها العاهرة.

بدأ العجوز يُحرِّك القارب بهدوءٍ عكس المجاديف. نظر لأسفل في الماء، ورأى أسماكًا صغيرةً ملونةً تسبح تحت الفقَّاعات التي تسبَّب فيها الطائر «رجل الحرب».

كان هناك بعض العوالق في الماء التي علقت بخيط الصيد. كانت لزجةً وأرجوانيةً. بينما كان العجوز يعمل، لاحظ تلك التقرُّحات على ذراعيه ويديه التي تسبب فيها «السماق السام» و«البلوط السام». ولكن هذه المرة أُصيب بسبب اللطمة التي جاءته مِن هذا السمك الطائر مثل السوط.

كانت الفقاعات القزحية تبدو جميلةً. ولكنه يعلم أنها الشيء الأكثر زيفًا في البحر، ودائمًا ما أحب العجوز أن يرى السلاحف المائية الكبيرة وهي تأكلها. تراها السلاحف، فتُحاول الوصول إليها، تفلتُ منها، فتُغلق عينيها وتنكمش كليًّا في درعها، ثُمَّ تخرج فتأكل العوالق حول هذه الفقاعات. كان يُحبُّ أن يسير على دروع السلاحف على الشاطئ بعد مرور العاصفة، ويسمع طقطقة دروعها أثناء تنقُّلِهِ مِن واحدةٍ إلى أُخرى بباطن قدميه الصلب.

أحبَّ السلاحف «الخضراء» والسلاحف «صقرية المنقار» (نوع من السلاحف مهدد بالإنقراض)، بأناقتها وسرعتها وقيمتها العالية. بينما كان لديه ازدراءٌ كبيرٌ للسلاحف البحرية ضخمة الرأس ذات الدرع الأصفر والتي كان يجدها غبيةً وغريبةً في ممارستها للحب، وتأكل طائر «رجل الحرب» بسعادةٍ وبأعين مغلقةٍ.

لم يكنْ يشعر بحالةٍ روحيةٍ تجاه السلاحف البحرية على الرغم مِن عمله على قوارب اصطيادها لسنواتٍ طويلةٍ. كان يشعر بالأسف تجاهها جميعًا، حتَّى سلاحف «الجذع الخلفي» الضخمة والتي يُقارب طولها مركبًا شراعيًّا صغيرًا وتَزِنُ طنًّا. معظم الناس لا يشعرون بالشفقة تجاه السلاحف؛ لأنَّ قلبها يظلُّ ينبض لساعاتٍ بعد أن تُصطاد ويُنزع مِن جسدها ويُقطَّع. ولكنَّ العجوز كان يشعر أنَّ لديه قلبًا مثل ذلك أيضًا، وقدمين ويدين مثل تلك التي عند السلاحف. كان يأكل بيضها؛ لِيتقوَّى. يأكله طوال مايو؛ ليكون قويًّا في سبتمبر وأكتوبر ومُستعدًّا لمواجهة سمكةٍ كبيرةٍ بحقٍّ.

كان يتناول أيضًا كوبًا مِن زيت كبد القرش كل يوم مِن البرميل الكبير في الكوخ الذي يضع الصيَّادون فيه أدواتهم. كان الأمر متاحًا للجميع، ولكنَّ معظم الصيَّادين يكرهون مذاق هذا الزيت. لكن ليس هناك ما هو أسوأ مِن أن تستيقظ في الوقت الذي يستيقظ فيه الصيَّادون. لذا كان الزيت جيدًا للغاية ضد جميع أنواع البرد والإنفلونزا، كما أنه جيدٌ للنظر.

نظر العجوز إلى أعلى. رأى الطير يُحلِّق مُجدَّدًا في دوائر.

-لقد وجد سمكةً.

ليس هناك الآن أسماكٌ طائرةٌ تخترق سطح الماء، كما أنه ليس هناك أسماكُ طُعْمٍ منتشرةٌ. وبينما كان العجوز يُشاهد ذلك، ارتفعت في الهواء سمكةٌ تونةٌ صغيرةٌ بلونها الفضي اللامع تحت أشعة الشمس. دارتْ ثُمَّ سقطتْ ثانيةً برأسها أولًا في الماء مِن جديدٍ. ومِن بعدها سمكة تونة تلو الأُخرى. أخذت أسماك التونة تتقافز في الهواء في كل الاتجاهات وتتخطَّى الطُّعم الذي وضعه العجوز وتطوِّقُهُ وتقودُهُ.

لو لم يكونوا يتنقلون بسرعةٍ كبيرةٍ، كنتُ سوف ألحقُ بهم.

حينها رأى العجوز القطيع قد غيَّرَ لون الماء مِن كثرة حركته. اقترب «رجل الحرب» مِن الماء مُحاوِلًا اصطياد أسماك الطُّعم التي صعدتْ إلى السطح في ذعرٍ.

-الطائر يُساعدني بشكلٍ جيدٍ للغاية.

شدّ الحبل الذي يربط به القارب على الشاطئ تحت قدميه، بينما حاول أن يبقى حلقة الحبل معقودةً.

أسقط مجدافيه عندما شعر بوزن التونة ودفعاتها المرتعشة وهو يمسكُ بخيط الصيد؛ مُحاوِلًا أن يسحبها داخل القارب، بينما الارتعاش يزداد كلما سحب. استطاع أن يرى ظهرها ذا اللونين الأسود والأزرق في الماء، وزعانفها الذهبية قبل أن يرفعها إلى جانب القارب ليدخلها فيه. رقدت السمكة في مؤخرة القارب في الشمس. كانت مكتنزةً وذاتَ عينينِ بدتا غبيَّتينِ. كانت تحملق كما لو أنها قد خسرت حياتها في محاربة ألواح هذا القارب الخشبي. كانت هناك رعشاتٌ دماغيةٌ سريعةٌ وضرباتٌ مِن ذيلها الأنيق السريع. ضرب الرجل العجوز على رأسها، ركلها، لا يزال جسدها يرتعش تحت ظل مؤخرة القارب.

-إنها ألباكورا (نوعٌ مِن التونة). سوف يكون طُعْمُها جيدًا، ربما تَزِنُ عشرة أرطال.

لا يتذكر متى بدأ الحديث مع نفْسه بصوتٍ مسموعٍ في البحر. كان يُغنِّي في الأيام الخوالي عندما يكون في نوبة قيادته للقوارب الشراعية أو تلك السفن التي تصطاد السلاحف البحرية. ربما يكونُ قد بدأ في الحديث بصوتٍ عالٍ عندما أصبح وحده. عندما رحل الصبي. ولكنه لا يتذكر. عندما كان يصطاد مع الصبي، لم يكونا يتحدثان سوى للضرورة. يتحدثان في الليل أو عندما تكون هناك عاصفةٌ على وشك أن تهب عليهما في يومٍ طقسه سيئٌ. يجدها فضيلةً ألَّا تتحدث في البحر دون ضرورةٍ. دائمًا ما وضع العجوز ذلك في اعتباره، واحترم هذا الأمر. ولكنه الآن يقول أفكاره بصوتٍ صاخبٍ في أوقاتٍ كثيرةٍ، طالما أنه ليس هناك أحدٌ يُمكن أن ينزعج منه.

-لو سمعني الآخرون أتحدث بصوتٍ مرتفعٍ، سيظنون أنني مجنونٌ. ولكن ما دمتُ لستُ مجنونًا، فلا يهم. كما أنَّ الأغنياء مِن الصيَّادين لديهم أجهزة راديو في قواربهم تتحدث معهم، وتخبرهم بالجديد فيما يخصُّ أخبار البيسبول.

الآن ليس وقت التفكير في البيسبول. الآن يجب التفكير في شيءٍ واحدٍ فقط. هذا الذي وُلِدْتُ مِن أجله. ربما يكون هناك سمكةٌ كبيرةٌ في مكانٍ ما قريبٍ مِن سرب الأسماك. لقد التقط واحدةً فقط كانت شاردةً مِن سرب الألباكورا. ولكنهم لا يزالون ذاهبينَ بعيدًا وبسرعةٍ. كلُّ شيءٍ يظهر على السطح اليوم يتحرَّك بسرعةٍ تجاه الشمال الشرقي. هل يمكن أن يكون هذا هو الوقت المناسب؟ أم هذه علامةٌ لا أعرفها مِن علامات الطقس؟

لم يستطع أن يرى الخضرة على الشاطئ الآن. ولكن فقط يُمكنه أن يرى التلال الزرقاء المُغطَّاة رأسها بالثلج والسحب كما لو كانت جبالًا جليديةً ترقد فوقها. البحر مظلمٌ للغاية، وقد صنع ضوء الشمس مناشيرَ زجاجيةً في عمق الماء. عددٌ كبيرٌ مِن العوالق اختفتْ بسبب تلك المناشير التي كان يراها العجوز وهو يشاهد خيوط صيده المتدلية لأسفل مباشرةً في الماء على عمق ميلٍ.

«التونة» هذا ما كان يطلقه العجوز على كل أنواع التونة. لم يكنْ يستطيع أن يُميِّزَ بينها بأسماء أنواعها المختلفة، إلَّا عندما يحتاج إلى أن يُقايض بها في مقابل أسماك الطُّعْم. الشمس حارَّةٌ الآن. شعر العجوز بها على رقبته مِن الخلف. شعر بالعرق يتصبب على ظهره كلما جدَّف.

يُمكنني أن أترك نفْسي للتيار، وأنام واضعًا عقدة الخيط حول إصبع قدمي؛ لتوقظني لو التقط شيئًا. ولكنَّ اليوم هو الخامس والثمانون، ويجب أن أصطاد جيدًا.

عندما كان يُشاهد خيوط الصيد بعد ذلك، رأى واحدةً مِن العصيّ الخضراء تنغمس في الماء بحدةٍ.

– نعم. نعم.

حرك المجدافين دون أن يصطدما بالقارب. وصل لخيط الصيد، وأمسكه بهدوءٍ ما بين سبابة وإبهام يده اليُمنى. لم يشعرْ بأيِّ وزنٍ أو ضغطٍ على الخيط. ثُمَّ بدا أنَّ الأمر سيتغير. كانت هناك محاولةٌ مُتردِّدةٌ لسحب الخيط. لم تكن جذبةً قويةً أو ثقيلةً، ولكنه كان يعلم جيدًا ماهية السمكة. مئة قامةٍ تحت الماء حيث تأكل سمكة مارلين (سمكة أبي سيفٍ.) كبيرة السردين الذي يُغطِّي خطاف الصيد، بينما تُحاول أكل سمكة التونة المثبتة في كُلَّاب الصيد.

أمسك العجوز بالخيط بهدوءٍ، ورفعه بيده اليسرى مُحرِّرًا إيَّاه مِن العصا الخضراء. الآن يُمكن أن يتركه ينزلق مِن بين أصابعه دون أن تشعر السمكة بأيِّ توتُّرٍ في الخيط.

هذا جيدٌ. يجب أن تكون سمكةً ضخمةً في هذا الوقت مِن العام. كُلي التونة يا مارلين، كليها. أرجوكِ كُليها. كم هي طازجةٌ وشهيةٌ تحت ٦٠ قدم في الماء البارد المظلم. قومي بدورةٍ مَرَّةً أخرى حولها في ذلك الظلام، ثُمَّ عودي إليها وكُليها.

شعر بجذبةٍ خفيفةٍ. بعدها أُخرى أقوى. يبدو أنه يصعب على المارلين نزع السردين مِن الخيط. بعدها لم يكن هناك أثرٌ لأي ضغطٍ على الخيط.

-هيَّا، قومي بدورةٍ أُخرى. فقط تشممِيها. أليست جميلةً وشهيةً؟ كُليها جيدًا الآن، ثُمَّ بعد ذلك هناك التونة. صلبةٌ وباردةٌ ولذيذةٌ. لا تكوني خجولةً يا مارلين. كُليها.

انتظر ممسكًا بالحبل بين سبابته وإبهامه، يراقب الخيوط الأُخرى التي يُمكن أن تلتقط سمكةً مِن هُنا أو هُناك. ثُمَّ شعر بجذبةٍ خفيفةٍ للخيط مَرَّةً أُخرى.

- ستأكلها. يارب، ساعدها لتأكلها.

لم تأكلها على الرغم مِن ذلك. ذهبت المارلين، وبقى العجوز يشعر بشيءٍ مِن الخواء داخله.

-لا يُمكن أن تذهب. يا يسوع! أنت تعلم أنها لا يجب أن تذهب. رُبما تقوم بجولةٍ، ربما تكون قد علقتْ في خطَّافٍ مِن قبل، ولا تزال تتذكر شيئًا مِن هذا الأمر.

ثُمَّ شعر بجذبةٍ للخيط، فتسللتْ لقلبه السعادة.

-كانت مجرد جولةٍ حول المكان، سيأخذ التونة.

بعدما شعر بسعادةٍ لتلك الشدة الرقيقة، أحسَّ وكأنَّ الخيط علق بشيءٍ صعبٍ وثقيلٍ بشكلٍ لا يُصدَّق. لقد كان هذا هو وزن المارلين. ترك الخيط ينزلق لأسفل ولأسفل مستنفدًا بكرتينِ منه. وبينما تسبح السمكة لأسفل، آخذةً الخيط المنزلق مِن بين أصابع العجوز معها، ظل يشعر بالوزن الكبير،

على الرغم مِن أنَّ ضغط الإبهام والسبابة على الخيط كان ضئيلًا للغاية.

– أيُّ سمكةٍ هذه! يبدو أنَّ الطُّعم قد علق في جانب فمها وهي تتحرَّك ممسكةً به.

فكَّر أنها ربما ستحاول أن تستدير وتبتلع الطُّعْم كاملًا.

لم يقلْ شيئًا مِن هذا؛ لأنه كان يعلم أنَّ قول الأشياء الجيدة مِن الممكن ألَّا يجعلها تحدث. كان يعلم أيَّ سمكةٍ تلك التي يُمكن أن تكون ضخمةً إلى هذا الحد، فكَّر في أنها ربما تكون الآن سائرةً في الظلام ممسكةً بالتونة بعرض فمها. في تلك اللحظة شعر بها تتوقَّف عن السباحة، ولكن الوزن كان لا يزالُ يُمكن الشعور به. ثُمَّ زاد الوزن عمَّا كان مِن قَبل، فترك لها المزيد مِن الخيط. شدَّد الضغط بإصبعه على الحبل للحظةٍ، فوجد الوزن يزداد، وخمَّن أنَّ السمكة تسبح لأسفل مباشرةً.

–لقد أخذها، الآن سوف أتركُهُ يأكلها جيدًا.

ترك الخيط ينزلق مِن بين إصبعيه، بينما مد يده اليُسرى؛ ليربط نهاية بكرة الخيط التي في يده بتلك التي كانت في مُؤخِّرة القارب. الآن هو مُستعدٌّ. لديه ٤٣ قامةً احتياطيةً مِن الخيط، بالإضافة إلى التي يستخدمها الآن.

– كُلي أكثر قليلًا، كُليها جيدًا.

كُليها حتَّى الحد الذي يُمكن أن يصل عندها كُلَّاب الصيد إلى قلبك ويقتلك. على مهلٍ، اجعليني أضع الرمح داخلك جيدًا. هل أنتِ مستعدةٌ؟ هل قضينا وقتًا كافيًا على مائدة الغداء؟

صاح العجوز: الآن!

جذب الخيط بقوَّةٍ بيديه الاثنتين، مكتسبًا يارِدةً مِن الخيط، ثُمَّ جذب مَرَّةً أُخرى، وأُخرى، مُؤرجِحًا الحبل بين ذراعيه بكلِّ ما فيه مِن قُوَّةٍ، معتمدًا على ارتكازه ونقطة ثقل وزنه.

لا شيءَ حدث. استمرت السمكة في التحرُّك بعيدًا وببطءٍ، ولم يستطع العجوز أن يرفعها ولو بوصةً واحدةً. كان الخيط قويًّا ومصنوعًا مِن أجل التعامل مع الأسماك الضخمة.

أمسك بالخيط جيدًا، ولفَّهُ حول ظهره، حتَّى أصبح مشدودًا لدرجةٍ جعلت قطرات الندى تتناثر مِن عليه. بعد ذلك، بدأت المارلين في إصدار أصواتٍ وهي في الماء. لا يزالُ العجوزُ ممسكًا بها ومُنعِشًا نفْسه ضد الإحباط بالاتكاء عكس اتجاه جذب الخيط. بدأ القارب في الحركة بطيئًا للأمام تجاه الشمال الغربي.

تسير المارلين الآن بثباتٍ مرتحلةً ومعها القارب وبه العجوز ببطءٍ في الماء الهادئ. بقية خيوط الطُّعم لا تزال في الماء، ولكن ليس هناك ما يُمكن أن يفعله بها.

– أتمنَّى لو كان الصبي معي، أنا الآن مربوطٌ بسمكةٍ ضخمةٍ، مسحوبٌ عن طريق حبلٍ عالقٍ بها. يُمكنني أن أجعل الخيط أسرع، ولكن المارلين يُمكن أن تقطعه. يجب أن أمسكه بكل ما أستطيع، وأُعطيها ما تريدُ مِن الخيط عندما تريد ذلك. الشكر للرب؛ لأنها تسبح للأمام، وليس لأسفل.

ماذا سأفعل لو قَرَرَتْ أن تسبح لأسفل في العمق؟ لا أعلم. ماذا سأفعل لو أطلقتْ حشرجةً ثُمَّ ماتت؟ لا أعلم. ولكن سأفعل شيئًا. هناك الكثير مِن الأشياء التي أستطيع فعلها.

أمسك بالخيط عكس اتجاه ظهره، وشاهده ينزلق في الماء والقارب مُتَّجِهًا إلى الشمال الغربي.

هذا سيقتله. لا يُمكن أن يقوم بذلك طوال الوقت.

لكن بعد أربع ساعاتٍ، كانت السمكة لا تزالُ تسبح بثباتٍ في الماء، ممسكةً بالقارب، والعجوز لا يزالُ مستعدًا بثباتٍ، والخيوطُ مشدودة على ظهره.

-لقد كانت الظهيرة عندما علقتْ بالخطاف، ولم أرها حتَّى الآن.

ضغط على قبعته القشيّة التي كانت على رأسه قبل أن تعلق السمكة في الخطَّاف وتجذبه حتَّى جرحته في رأسه. كان يشعر بالعطش أيضًا، وقد نزل على ركبتيه حريصًا على ألَّا يتسبب في أيِّ اضطرابٍ للخيط. تحرَّك بعيدًا، حتَّى وصل لمقدمة القارب مُحاوِلًا الوصول بكل ما يستطيع إلى زجاجة الماء بيدٍ واحدةٍ. فتحها، وشرب منها قليلًا. ثُمَّ استراح مُسنِدًا ظهره على مقدمة القارب. جلس على الشراع غير الملفوف والصاري مُحاوِلًا ألَّا يُفكِّر في شيءٍ سوى أن يكون أكثر تحمُّلًا.

نظر خلفه، ووجد أنه لا أرض على امتداد الأفق.

لم يعدْ يُمثِّل هذا أيَّ فارقٍ. يُمكنني دائمًا العودة إلى هناك. لا تزالُ هناك ساعتان قبل أن تغرب الشمس، ورُبَّما تصعد السمكة مِن الماء قبل ذلك. وإن لم تفعلْ، رُبَّما تصعد مع تمام القمر في السماء. وإن لم تفعل، رُبَّما تصعد مع شروقها. ليس لديَّ أيُّ شدٍّ عضليٍّ، وأشعر بأني قويٌّ. يبدو أنَّ الخطَّاف قد علق في فمها بالتأكيد، ولكنْ أيُّ سمكةٍ تلك التي تسحبني بهذه القوة طوال هذا الوقت؟ يجب أن تكون مغلقةً فمها جيدًا

وممسكةً بالسلك بإحكام. أتمنَّى لو أراها. أتمنى لو أراها مَرَّةً واحدةً؛ لأعلم ما الذي أقاومه وأخوض معركتي ضده.

لم تُغيِّر السمكة مسارها طوال الليل. تأكَّد العجوز مِن ذلك بمراقبته للنجوم. كانت ليلةً باردةً بعدما غربت الشمس. والعرق الذي كان على ظهره ويديه وقدميه كله قد جفّ. أثناء اليوم، أخذ الكيس الذي يُغطِّي به صندوق أسماك الطُّعم، ووضعه في الشمس؛ حتَّى يجف. بعدما غربتْ، ربط الكيس حول رقبته وظهره جيدًا وبحرصٍ، مُحاوِلًا أن يضعه حيث يكون الخيط فوقه، فيُخفِّف الضغط عن كتفيه.

خفف الكيس بالفعل مِن ضغط الخيط عليه، ووجد طريقةً يتكِّئُ بها على مُقدِّمة القارب في عكس اتجاه سيره، ممَّا جعله يشعر أنه مرتاحٌ إلى حدٍّ كبيرٍ. كان الوضع في الحقيقة أقلَّ إرهاقًا. لكنَّهُ فكَّر فيه على أنه أكثر راحةً.

لا يُمكنني أن أفعل شيئًا معها، ولا هي يُمكنها أن تفعل شيئًا معي. لا يُمكننا سوى أن نبقى مع بعضنا البعض هكذا.

أثناء ذلك، وقف وتبوَّل مِن على جانب القارب. نظر إلى السماء؛ لِيتحقَّق مِن المسار الذي تتخذه السمكة. ظهر الخيط كما لو أنَّ عصا لامعةً في الماء تتحرَّك ببطءٍ أكثر. والضوء الآتي مِن هافانا لم يعدْ قويًّا كما كان. ومع ذلك، فهو يعلم الطقس جيدًا ويعرف أنَّ الرياح ستأتي مِن جهة الشرق.

لو فقدت الضوء الآتي مِن هافانا، فهذا يعني أننا نتجه أكثر ناحية الشرق. ما هي يا تُرى أخبار البيسبول هذه الأيام. كان الأمر سيصبح رائعًا لو معي راديو وأنا في هذه الرحلة. ركِّز فقط مع السمكة. فكِّر فقط فيما

تفعل. يجب ألَّا تقوم بأيِّ حماقةٍ.

-أتمنى لو كان معي الصبي. كان يُمكنه أن يساعدني، حينها كنتُ سأرى هذه السمكة.

لا أحد مِمَّن هم أصحاب أعمارٍ كبيرةٍ يجب أن يكون وحده في البحر. ولكن هذا أمرٌ لا يُمكن تجنبه أحيانًا. يجب أن أتذكَّر أن أتناول التونة قبل أن تفسد، ستجعلني أكثر تحمُّلًا لمشقة العمل. تذكر، لا يهم كونك لا تحب أن تأكلها، يجب أن تأكلها في الصباح، تذكر ذلك.

* * *

أثناء الليل، اثنان مِن الدلافين جاءا حول القارب، واستطاع العجوز أن يسمع كلًّا منهما يدور وينفخ الماء. يُمكنه أن يُفرِّق بين أصوات النفخ التي يُحدثها ذكر الدولفين، والتنهيدات الهامسة التي تقوم بها أنثاه.

– إنهما جيدان، يلعبان ويقومان ببعض المرح ويُحبان بعضهما البعض. هم أخوتنا مثل السمك الطائر.

ثُمَّ بدأ يُشفق على السمكة الكبيرة العالقة معه.

هي سمكةٌ رائعةٌ وغريبةٌ. مَن يعلم كم عمرها. لم أقابلْ في حياتي سمكةً بهذه القوة أو تتصرف بهذه الطريقة الغريبة مِن قَبل. رُبَّما تكون حكيمةً للغاية، وتريد أن تتجنب القفز مِن الماء. يُمكنها أن تُدمرني لو قفزتْ أو اندفعتْ مَرَّةً واحدةً اندفاعةً وحشيةً. ولكن رُبَّمَا تكون قد علقتْ في الكثير مِن المَرَّات مِن قَبل، وتعلم كيف يُمكن أن تخوض معركتها بهدوءٍ. هي لا يُمكنها أن تعلم أنها أمام رَجُلٍ واحدٍ، فضلًا عن أنَّ هذا الرَّجُل عجوزٌ. ولكن ليس هناك أيّ ذعرٍ يبدو عليها في خوضها

للمعركة. أتساءل فقط هل لديها أيُّ خططٍ، أم أنها فقط يائسةٌ وفاقدة الأمل مثلي!

تذكر المرة التي اصطاد فيها أحد زوجي المارلين. كانت السمكة الذكر دائمًا ما تترك الأنثى تأكل أوَّلًا. ولكن هذا جعل الأنثى تعلق في الخطاف. جعل هذا الذكر يصبح مُتوحِّشًا ويضرب الماء بذعرٍ، مثيرًا معركةً؛ لكي يُحاول إخراج أنثاه ممَّا هي فيه. ظل جوارها طوال الوقت يدور حولها على سطح الماء، قريبًا منها للغاية، ممَّا جعل العجوز يخاف مِن أنه رُبَّما يقطع الحبل بذيله الحاد مثل المنجل في شكله وحجمه. عندما رفعها العجوز جوار القارب مُعلِّقًا إياها فيه، ظل الذكر جوار القارب. وبينما العجوز ينظف الخيوط ورمح الصيد، قفز الذكر عاليًا مِن المياه في الهواء جوار القارب؛ ليرى الأُنثى مَرَّةً أخيرةً، ثُمَّ نزل عميقًا في الماء بذيله الأرجواني الجميل. تذكر العجوز كل ذلك وهو في مكانه على القارب يواجه المارلين في معركته التي قد بدأت.

كان هذا هو أكثر شيءٍ مُحزنٍ رأيته في حياتي. شعر الصبي وقتها أيضًا بالحزن، وقد طلبنا مِن الأنثى المغفرة، وأجهزنا عليها في الحال؛ حتَّى لا تتألم.

-أتمنى لو كان الصبي معي هنا.

قالها وهو يثبِّت نفْسه عكس اتجاه حركة القارب مِن جديدٍ وشاعرًا بقوة السمكة مِن شدة جذبها للخيط الذي يقبض عليه ممسكًا إيَّاه، داعمًا ذلك بجعله حول كتفه مُتحرِّكًا مع القارب بثباتٍ إلى الأمام مهما كان اختيارها.

بالتأكيد مِن الضروري أن تتخذ قرارًا في لحظةٍ ما. اختيارها الآن أن تبقى تحت في الماء العميق البارد بعيدًا عن أيِّ فخاخٍ أو محاولاتٍ لاصطيادها أو الإيقاع بها. واختياري أن أمضي معها قُدُمًا مُحاوِلًا أن تكون لي قبل أيِّ أحدٍ آخر بعيدًا عن الناس كلها في هذا العالم. الآن، نحن مع بعضنا البعض منذ الظهيرة، وليس هناك أحدٌ يُمكنه مساعدة أيٍّ منّا. ربما كان يجب ألَّا أكون صيَّادًا أبدًا. ولكن هذا هو الشيء الذي وُلِدت مِن أجله. يجب أن أتذكَّر تناول التونة بعد أن تبدأ خيوط الضوء في الظهور.

مرَّ بعض الوقت قبل أن تظهر خيوط النهار. حينها سمع إحدى عصيّ الصيد تتكسر والخيط يُسحب بسرعةٍ شديدةٍ لأسفل مِن على جانب القارب. يبدو أنَّ هناك مَن أكل إحدى أسماك الطُّعم التي ظلت في الماء دون أن ينتبه لها. في الظلام، أخذ السكين، ورفع الخيط الممسك بالمارلين مِن على كتفه واضعًا إيَّاه على الكتف الآخر، وقطع كل خيوط الصيد الأُخرى التي كانت متدليةً في الماء مِن على حافة القارب. لم يعدْ في حاجةٍ إليهم الآن. سيجعله هذا قادرًا على توفير بعض بكرات الخيط مِن أجل المارلين. كان يعمل بيدٍ واحدةٍ، واضعًا قدمه على البكرات، راكعًا في بعض الأحيان؛ لكي يتمكن مِن السيطرة على الخيوط جميعها. الآن لديه ست بكراتٍ احتياطيةٍ مِن الخيط، بعدما أصبح معه بكرتان مِن كلِّ خيطٍ بعد قطعِها جميعًا وربطِها مع بعضها البعض.

بعدما تُشرق، سوف أقطع خيط الطُّعم الذي ما زال على عمق ٤٠ قامةً، وأربطه مع الآخرين. سوف أفقد مائتي قامةٍ مِن الخيوط «الكتالونية»

الجيدة، ومعها أسنانًا وخطاطيف، ولكن كل هذا يُمكن تعويضه. أمَّا ما لا يُمكن تعويضه: هو أن تهرب المارلين لو جذبتُ الحبل وقطعتُهُ. أنا لا أعلم أيَّ سمكةٍ تلك التي تسحب الطُّعم وهو يجرح فمها كل هذه المسافة. لا يقومُ بذلك سوى مارلين أو سمكة المنشار أو قرش.

- أتمنَّى لو كان الصبي معي.

ولكنَّ الصبي ليس معك. أنتَ وحدَكَ. ومِن الأفضل أن تعودَ إلى العمل مِن جديدٍ. سواء كنتُ ستعمل في الظلام أو غير ذلك. أمامك خيط طُعمٍ لا يزالُ على عمق أربعين قامةً يجب أن تقطعه وتحتفظ بخيطه احتياطيًّا معك.

قام بذلك بالفعل. كان الأمر صعبًا في الظلام. وبمجرد أن سحبته المارلين بقوةٍ أكثر قليلًا، انكفأ على وجهه، وجُرِح أسفل عينه. انهمر الدم على وجنته قليلًا. ولكنه تجلَّط، وجفَّ قبل أن يصل إلى ذقنه. حاول أن يعود إلى مكانه كما كان في مقدمة القارب مسندًا ظهره عليه. عدَّل بحذرٍ مِن وضع الكيس؛ ليكون الخيط مستندًا على جزءٍ جديدٍ مِن كتفه. شعر بسحبة السمكة قبل أن يرى حركة القارب في الماء والخيط يزداد توتُّرًا.

أتساءل: لماذا قامت بتلك الحركة التي أمالت القارب؟ الخيط منسابٌ بالتأكيد على ظهرها الضخم. أظنَّ أنها لا تشعر بنفْس السوء الذي أشعر به خاصَّةً في ظهري. ولكنَّها لا يُمكن أن تظلَّ تجذب القارب إلى ما لا نهاية. لا يهم كم هي ضخمة أو هائلة؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ واضحٌ الآن، ولديَّ ما يكفي مِن مخزون خيط الصيد الذي قد يحتاجه أيُّ رَجُلٍ قد يحاول أن يصطادها.

- يا مارلين، سأبقى معَكِ، حتَّى لو كان ذلك معناه أن تكون نهايتي، حتَّى لو كان ذلك سيفضي إلى موتي.

أظنُّ أنها ستبقى معي أيضًا.

كان يفكر في انتظار أن تشرق. الجو باردٌ الآن في تلك الساعة التي تسبق الشروق، وقد حاول أن يتحرَّك ويُحِكَّ جسده في جسم القارب؛ حتَّى يستدفئ به.

يُمكنني أن أقوم بذلك. يُمكنني أن أظل معه بقدر ما يمكنه أن يسحب الخيط.

مع الضوء الأول، سيأخذ الخيط ويذهب به لأسفل أكثر في الماء. القارب يتحرك بثباتٍ، ومع أول لمحةٍ مِن ضوء الشمس، رأى العجوز الشمس آتيةً مِن ناحية كتفه الأيمن. **(الآن سيبدأ في الحديث مع السمكة أحيانًا بصيغة المُذكَّر، لمَّا يشعر أنه يتحدَّث إلى عدوه. وفي أحيانٍ أُخرى سيتحدث إليها بصيغة المُؤنَّث، عندما يشعر بالعطف عليها، أو عندما يشعر بمشاعر رقيقةٍ نحوها في العموم).**

-إنه يتجه شمالًا.

حركة التيار ستجعلنا نتجه شرقًا. أتمنَّى لو يترك نفْسه لحركة التيار. ربما يكون ذلك علامةً على أنه تعب ولو قليلًا.

عندما أشرقت أكثر، أدرك العجوز أنَّ السمكة لم تتعبْ. ولكن هناك فقط علامة إيجابية: ميل الخيط يُظهِر أنَّ المارلين تسبح على عمقٍ أقل. ليس هذا بالضرورة دليلًا على أنه سيقفز مِن الماء، ولكن رُبَّما.

- يا إلهي! اجعله يقفز. لديَّ ما يكفي مِن الخيط؛ لأتعامل معه.

رُبَّما يُمكنني زيادة قوة الشد قليلًا، حينها سيؤلمه الخيط ويقفز. خيوط الضوء التي تظهر الآن ستجعله يخرجُ مِن الماء؛ ليملأ أكياس الهواء الموجودة على امتداد ظهره. لا يُمكنه أن يُعرِّض نفْسه للموت بعد ذلك بأن يهبط سريعًا في عمق الماء.

حاول أن يزيد مِن الشد على الحبل، ولكنه كان مشدودًا إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ، ولا يُمكنه أن يفعل المزيد فيما يخصُّ ذلك.

يجب ألَّا أهزه بعنفٍ. كلُّ حركةٍ للحبل قد تتسبب في زيادة الجُرح الذي تسبَّب فيه خطَّاف الصيد. هذا سيجعله قادرًا على أن يتحرَّر مِن الخطَّاف بسهولةٍ أكبر عندما يقفز. على أيِّ حالٍ، أشعر أنني أفضل مع صعود الشمس واشتداد حرارتها. يجب ألَّا أنظر إليها. هذا ما لا بُدَّ أن أحرص عليه؛ حتَّى لا تتأذَّى عيناي.

كان هناك أعشابٌ مائيةٌ صفراءُ وذابلةٌ على الخيط، ولكنَّ العجوز لم يبالِ بها.

إنها أعشاب الخليج التي تجعل الخيط فسفوريًّا في الليل.

- يا مارلين، أنا أحبُّك وأحترمُك كثيرًا. ولكني سأقتلك قبل أن ينتهي هذا اليوم.

فلنأمل ذلك.

أتى طائرٌ صغيرٌ مِن ناحية الشمال باتجاه القارب. كان يشدو مُحلِّقًا على ارتفاعٍ قريبٍ مِن الماء. كان يُمكن للعجوز أن يرى كم كان الطائر مُجهَدًا. وقف الطائر على مُؤخِّرة القارب، واستراح. ثُمَّ طار أمام رأس العجوز،

ووقف على الخيط حيث كان الوضع بالنسبة له مريحًا بشكلٍ أكبر.

-كم هو عمرك؟ هل هذه رحلتك الأُولى؟

كان الطائر ينظر إليه، بينما العجوز يتحدَّث. كان مُرهَقًا للغاية لدرجةٍ جعلته لا يريدُ مغادرة خيط الصيد.

-إنه ثابتٌ. ثابتٌ للغاية. يجب ألَّا تكون مُرهَقًا لهذه الدرجة بعد ليلةٍ دون رياحٍ. هل هناك طيورٌ أُخرى ستأتي وراءك؟

رُبَّما تأتي وراءه الصقور التي دائمًا ما ألاقيها كلما خرجتُ إلى البحر.

كان يُفكِّر في ذلك، لكنه لم يقلْ أيًّا منه للطائر الذي لم يكنْ يستطيع أن يفهم ما يقوله العجوز بأيِّ حالٍ مِن الأحوال. كما أنَّ الطائر سوف يعلم أكثر حول الصقور قريبًا جدًّا.

-خُذ استراحةً جيدةً يا صغيري، وبعد ذلك اذهبْ وخُذْ فرصتك كأيِّ طائرٍ أو سمكةٍ أو إنسانٍ.

شجَّعه وجود الطائر على أن يتكلم. كان ظهرُهُ يؤلمه للغاية مِن الوقوف منتصبًا طوال الليل حتَّى الآن.

-ابقَ معي حتَّى نعود لمنزلي إن كُنتَ تُحبُّ ذلك يا صغيري. لكنني آسفٌ لأني لا أستطيع نصب الشراع وأعود بك الآن إلى الشاطئ، على الرغم مِن حركة الرياح التي يبدو في الأفق أنها في طريقها إلينا. اعذرني فأنا في رفقة صديقٍ الآن.

ثُمَّ أشار إلى الماء.

في تلك اللحظة، سحبت السمكة الخيط بقوةٍ مُفاجئةٍ، فأوقعت العجوز

على أرض مقدمة القارب، وكادت تجرُّهُ معها لو لم يكن قادرًا على استعادة توازنه مَرَّةً أُخرى، وتاركًا لها بعض قاماتٍ أُخرى مِن الخيط.

حلَّق الطائر قَلِقًا عندما اهتز الخيط. لم يره العجوز وهو يذهب، ولكنَّهُ شعر باهتزاز الخيط، ولاحظ أنَّ يده اليُسرى تنزف.

- شيءٌ ما قد آلمه إذنْ.

جذب الخيط؛ ليرى إن كان في إمكانه تغيير اتجاه سير السمكة. ولكن عندما لمس النقطة المركزية في الخيط، أدرك أنه مشدودٌ لأقصى درجةٍ، فظلَّ قابضًا عليه وجاذبًا إيَّاه في عكس اتجاه سير السمكة.

نظر حوله باحثًا عن الطائر الذي قد أحبَّ صُحبته، ولكنَّ الطائر لم يعدْ موجودًا حينها، فعرف أنه قد ذهب.

لم يبقَ كثيرًا معي، ولكنَّ الأمر كان سيصبح أكثر قسوةً عليه لو بقي حتَّى أعود إلى الشاطئ. كيف تركته يُصيبني بهذه السحبة الشديدة فجأةً؟ لا بُدَّ أنني كنتُ غبيًّا للغاية في تعاملي معه. أو رُبَّما كنتُ قد انهمكتُ في الحديث مع الطائر بينما هو قام بفعلته تلك سريعًا وبشكلٍ مفاجئٍ. سأحاول الآن أن أكون أكثر انتباهًا لعملي، وبعد ذلك يجب أن آكل التونة؛ حتَّى لا يصيبني وهنٌ، وأفقد قواي سريعًا.

- أتمنَّى لو كان الصبي معي. أتمنَّى لو كان معي بعض الملح.

صرخ بذلك التمنِّي عاليًا ناظرًا إلى السماء، ثُمَّ نقل ثِقل الخيط إلى كتفه الأيسر. جلس على ركبتيه بحذرٍ، وغسل يديه في ماء المحيط بحرصٍ وهو يقبضُ عليها ويغمرها في الماء لأكثر مِن دقيقةٍ، مُشاهِدًا الدم يختلط بالماء، ويذهب بعيدًا عن القارب مع حركة الماء والقارب الثابتتين.

-لقد أصبحتْ حركتُهُ أبطأ كثيرًا.

أَحَبَّ أن يترك يده في الماء المالح لمدةٍ أطول، لكنَّهُ خشيَ مِن أن تُفاجئه المارلين ثانيةً. وقف ثابتًا مستعيدًا توازنه، مُوجِّهًا يده في اتجاه الشمس؛ لكي تجفَّ. يبدو أنَّ ضغط الخيط على يده أحدث قطعًا فيها. المشكلة هنا أنه على الرغم مَن أنَّ الجُرح ليس صعبًا، إلَّا أنه أُصيب في الموضع الذي يستخدمه في العمل. كان يعرف أنه سيحتاج يده خلال تلك المعركة، ولم يرد أن يُجرح قبل أن ينجح في اصطيادها، ناهيك عن حملها وتقطيعها.

-الآن يجب أن آكل التونة. يُمكنني أن أصل إليها باستخدام عصا الصيد، سآكلها هنا في مكاني محاوِلًا أن آخذ قسطًا مِن الراحة.

قال ذلك عندما جفَّتْ يده، وانحنى فأخذ عصا الصيد، مُستخدِمًا إيَّاها في جلب التونة مِن مُؤخِّرة القارب، جاذبًا معها بعض خيوط الصيد. مسك الخيط على كتفه الأيسر ضاغطًا إيَّاهُ بيده اليسرى، ثُمَّ أخذ التونة مِن صنَّارة الصيد، ووضع العصا مكانها ثانيةً. ثبَّت السمكة بإحدى ركبتيه، وقطَّع شرائح طوليةً مِن لحمها الأحمر الداكن مِن ظهرها مِن الرأس وحتَّى الذيل. حين انتهى مِن تقطيع ستَّة شرائح، وضعها جميعًا على حافة مُقدِّمة القارب، ومسح سكِّينه في سرواله، وترك هيكل البونيتو فارغًا مِن اللحم بطولها حتَّى الذيل، ثُمَّ ألقى بالهيكل مِن القارب.

-لا أظن أنه يُمكنني أن آكل واحدةً كاملةً.

قال ذلك وهو يُوجِّه سكِّينه إلى إحدى الشرائح. استطاع العجوز في تلك اللحظات أن يشعر بالشدة القوية والثابتة للخيط. حيث إنَّ الأمر أصبح فوق احتماله، وأُصيبتْ يده اليُسرى بشدٍّ عضليٍّ مُفاجِئٍ. شعر بشيءٍ مِن

الغضب، ونظر ليديه بتقزُّزٍ.

-أيُّ يدٍ أنتِ! توتَّري كما تريدين. حتَّى لو ستتحولين لمخلبٍ، لن يُفيدك هذا في شيءٍ.

فليذهب هذا التشنُّج إلى الجحيم.

فكَّر في ذلك، ونظر لأسفل في الماء المـُظلم على امتداد الخيط.

كُلِ التونةَ الآن، وستجعلك أقوى. الأمر ليس خطأ يَدِكَ، فأنت قضيتَ الكثير مِن الوقت على ذلك الحال مع السمكة. ولكن مِن المحتمل أن تظلَّ لوقتٍ أطول معها، فكُلْ إذن البونيتو الآن.

التقط قطعةً منها، ووضعها في فمه، ومضغها ببطءٍ. لم تكنْ سيئةً بدرجةٍ كبيرةٍ.

امضغها جيدًا، وامتصَّ كل عصارتها. لم تكنْ ستصبح سيئةً لو عليها بعض الحامض أو الليمون أو حتَّى الملح.

-كيف تشعرين الآن يا يدي العزيزة؟

كانت يده المصابة بالشد العضلي متيبسةً للغاية كالميت.

- سوف آكل المزيد مِن أجلك.

أكل الجزء الأخير مِن الشريحة التي كان قد قطعها نصفين. مضغها بتمهُّلٍ، ثُمَّ لفظ جلدها.

- كيف تسير الأمور معكِ الآن؟ أم أنه لا يزالُ مِن الـمُبكِّر أن نعرف بخصوص ذلك؟

تناول شريحةً أُخرى كاملةً، ومضغها جيدًا.

تبدو البونيتو قويةً وممتلئةً باللحم وطازجةً. كنتُ محظوظًا لأنني اصطدتها، بدلًا مِن اصطياد دولفين صغيرٍ. فالدلافين الصغيرة تكون حلوة المذاق للغاية بشكلٍ يجعلك غير قادرٍ على أكلها. أمَّا هذه؛ فهي ليست حلوةً بشكلٍ عامٍّ، ولا زالت تُحافظ على نضارة لحمها حتَّى الآن.

أتمنَّى لو كان لديَّ بعض الملح.

لا أعلم إن كانت الشمس ستفسدها أم سَتُجفِّفُها، لذا يجب عليَّ أن آكلها كلها على الرغم مِن أنَّني لستُ جائعًا. كما أنَّ المارلين هادئةٌ وثابتةٌ في حركتها. سوف آكلها كلها، وبعدها سأكون جاهزًا.

أتمنَّى لو يُمكنني إطعام المارلين. أشعرُ أنَّها أختي. ولكن يجب أن أقتلها، وأبقى قويًّا لفعل ذلك.

بُبطءٍ وتمهُّلٍ، أكل كل شرائح السمكة. اعتدل بعدها، ومسح يديه في سرواله.

-الآن يمكنكِ يا يدي اليُسرى أن تتركي الحبل، وسوف أتعامل معه بيدي اليُمنى وحدها، حتَّى يتوقَّف هذا الذي يحدثُ معَكِ.

وضع قدمه اليُسرى على الحبال الثقيلة على أرضية القارب، وسحب الخيط مِن يده في عكس اتجاه حركته.

-إلهي! ساعدها؛ لكي يذهب عنها هذا الشد؛ لأنَّني لا أعلم ما الذي يُمكن أن تفعله السمكة في أيِّ وقتٍ.

ولكنَّه يبدو هادئًا. ويتَّبع خطةً ما قد وضعها مسبقًا. ولكن ما خطته؟ وماذا يدور في عقله؟ بالنسبة لي، يجب أن أرتجل وأتعامل مع ما سيقوم

به في أيِّ وقتٍ، والذي سيكون بالتأكيد شيئًا عصيبًا لضخامة حجمه. ولكنَّه ظلَّ في الماء طوال ذلك الوقت. لذا سأظلَّ معه طالما بقي في الأسفل.

خبط يده المصابة بالشد على سرواله، مُحاوِلًا أن يُحرِّك أصابعه، ولكنها لم تنفتحْ.

رُبَّما تنفتح عندما تصعد الشمس وتشتد حرارتها. رُبَّما تنفتح عندما أهضم التونة. إن كان عليَّ أن أفتحها، فسأفعل ذلك مهما كلفني الأمر. ولكنني لا أريد أن أفتحها الآن بقوةٍ. سأتركها تنفتح بنفْسها وتعود لطبيعتها. لها الحق في أن تُصاب بذلك الشدّ بعد كل تلك المعاملة السيئة مني وإجهادها طوال الليل. ولكنني الآن أريد أن أُحرِّر الخيط منها؛ ليمكنني الاستعانة بالخيوط المتفرقة هنا وهناك.

نظر للبحر على امتداد الأفق، وأدرك كم هو وحيدٌ. لكنَّهُ يستطيع أن يرى المنشورات التي يصنعها الضوء في الماء المعتم، وكيف يمتد الضوء بامتداد الأفق مرتاحًا هادئًا. تتشكَّلُ السحب الآن، ويبدو أنَّ الرياح التجارية على وشك الهبوب. نظر إلى السماء مِن بين السحب، ووجد كم هي لامعةٌ، وأدرك أنه لا يجبُ عليه أن يكون وحيدًا في البحر لمدةٍ طويلةٍ.

فكَّر في أنه كم مِن الرجال يخافون أن يكونوا في قاربٍ صغيرٍ بعيدين في البحر، حيث لا يُمكنهم رؤية الشاطئ، ويعلمون أنَّ ذلك ربما لا يكون عملًا صائبًا، خصوصًا في الشهور التي يتغير فيها الطقس فجأةً. ولكنهم الآن في شهور الأعاصير، وبما أنه ليس هناك أعاصير قادمةٌ، فيكون الطقس هذه الأيام هو الأفضل على مدار العام.

لو كان هناك إعصارٌ، فسنستطيع أن نرى دائمًا إشاراتٍ على ذلك في السماء قبلها بأيامٍ. ولكنني لم أر شيئًا مِن ذلك عندما كنتُ على الشاطئ. على أيِّ حالٍ، ما يهم أنه ليس هناك أعاصير ستأتي خلال هذه الأيام.

نظر إلى السماء، ورأى السحب البيضاء تتشكَّل مثل الآيس كريم بعضها فوق بعض. هذه هي سماء سبتمبر.

-نسيمٌ لطيفٌ. طقسٌ جيدٌ بالنسبة لي وللمارلين.

كانت يده اليُسرى لا تزال مصابةً بذلك الشد العضلي، ولكنه كان يُحاول التعامل مع الأمر ببطءٍ وحرصٍ.

أكرهُ ذلك التشنُّج. الأمر أشبه بخيانة الجسد للمرء نفْسه. مثلًا، بالتأكيد أمرٌ مخزٍ أن تُصاب بالإسهال؛ لأنك أكلتَ شيئًا عفنًا، وتتقيأ بسببه. ولكن الشد يُذِلُّ المرء خاصةً إن كان وحده.

لو كان الصبي هنا، رُبَّما كان بإمكانه أن يُدلِّكها مِن أجلي. يبسطها لأسفل مُحاوِلًا جعلها تتحرك مِن جديدٍ.

بعد هنيهةٍ، شعر باختلافٍ في قوة شد الخيط الممسك به بيده قبل أن يرى ميله في الماء قد تغيَّر. وعندما مال عكس اتجاه حركة الخيط سريعًا وعكس الاتجاه الذي كان يُثبِّت فخذه نحوه، رأى ميل الخيط يقلُّ، ممَّا يدلُّ على أنَّ السمكة تصعد لأعلى ببطءٍ.

-سيأتي. هيَّا يا يدي، عودي لحالتك الأُولى الآن.

ارتفع الخيط ببطءٍ وثباتٍ، ثُمَّ اضطرب سطح المحيط قبالة القارب، وخرجت المارلين أخيرًا، وقد انسابت الماء مِن على جانبيها. كانت تلمع

في الشمس، ورأسها أسود، وقد أخذت لونًا أرجوانيًّا داكنًا بفعل سقوط ضوء الشمس عليها. أما الشرائط على جانبيها؛ فقد بدتْ بعيدةً وذات لونٍ أرجوانيٍّ لامعٍ. كان سيف المارلين طويلًا كمضرب بيسبول مُدبَّبٍ، وقد ظهرت السمكة بكل طولها فوق الماء، ثُمَّ انغمست ثانيةً بنعومةٍ كغوَّاصٍ. حينها، رأى العجوز شفرة ذيلها التي تُشبه المنجل وقد تبعتها إلى أسفل. كانت تبدو وكأنها سيفٌ ذو حدَّين.

-إنها أطول مِن قاربي بقدمينِ كاملينِ على أقل تقديرٍ.

ذهب الخيط معها بسرعةٍ، ولكن بثباتٍ. لم يشعر أنَّ السمكة تبدو مذعورةً. حاول العجوز بكلتا يديه أن يظلَّ مسيطرًا بقوةٍ على الخيط. كان يعلم أنه لو لم يُبطِّئْ مِن حركة السمكة بضغطٍ ثابتٍ مِن يديه، فَمِن الممكن أن تأخذ السمكةُ الخيطَ كله وتكسر الخطَّاف.

إنها سمكةٌ كبيرةٌ وقويةٌ، ويجب أن أقنعها بأني الأقوى. يجب ألَّا أجعله يشعر أنه أقوى مني. ماذا يُمكن أن أفعل لو كنتُ مكانه؟ رُبَّما كنتُ سأفعل كلَّ شيءٍ؛ لأكسر هذا القيد. ولكن شكرًا يا إلهي؛ لأنه ليس في نفْس ذكاء مَن يُواجهه. ولكنه أكثر نُبلًا وإخلاصًا.

رأى العجوز الكثير مِن الأسماك الكبيرة مِن قَبل. رأى الكثير منها، وقد كان يزيد وزنها عن آلاف الأرطال، واصطاد اثنتين منها بالفعل على مر حياته. لكنه لم يكن أبدًا وحيدًا في هذه المرات. الآن هو وحيدٌ وبعيدٌ عن الشاطئ. كما أنَّ السمكة هي أكبر مِن أيِّ سمكةٍ ممكن أن يكون قد سمع عنها. ويده اليُسرى لا تزالُ مصابةً كما لو كانت قد تحوَّلتْ لمخلب نسرٍ.

سوف يتوقَّفُ هذا التشنُّج العضلي. بالتأكيد سيحدثُ ذلك؛ لكي

يُمكنها مساعدة يدي اليُمنى. يجب أن يتوقَّف هذا التشنُّج. ليس عدلًا أن تظلَّ يدي على حالتها بتلك الصورة.

أبطأت السمكة مَرَّةً أُخرى، وأخذت المسار الذي اعتادت عليه.

أتساءل، لمَ خرج إلى سطح الماء؟ هل فعل ذلك فقط ليخبرني كم هو ضخمٌ؟ المهم أنني رأيته وأعلم مَن أُواجه الآن. أتمنَّى لو كان يُمكنني أن أجعله يرى أيَّ نوعٍ مِن الرجال ذلك الذي يُواجهه. ولكن ماذا يُمكن أن يرى الآن سوى يدي العاطبة.

سأجعله يعتقد أنني أكثر مِن رَجُلٍ. وسوف أكون كذلك. أتمنَّى لو كنتُ سمكًا. فمع كل هذا، هي في النهاية تواجه إرادتي وذكائي فقط.

جلس على حافة القارب الخشبية ليرتاح قليلًا. كان يُحاول أن يتعامل مع معاناته كما يجب عليه أن يفعل. ظلَّت السمكة تسبح عميقًا في الماء. بدا البحر منفتحًا أمامه، والرياح في طريقها للهبوب مِن الشرق. وبقرب الظهيرة فك التشنُّج الذي كان في يده اليُسرى.

صاح مبتهجًا وهو يُحرِّك الخيط مِن الموضع الذي كان مستندًا فيه فوق الكيس على كتفه لموضعٍ آخر: أخبارٌ سيئةٌ في الطريق إليكِ يا مارلين.

كان مرتاحًا، ولكنَّهُ يُعاني على الرغم مِن أنه لم يكنْ يعترف بالمعاناة في كل الأحوال.

لستُ مؤمنًا، ولكنني سأتلو كل الصلاوات التي يُمكنني القيام بها مِن أجل ماريا ويسوع لو حدث ونجحت في صيدك يا مارلين. بل سأقوم بالحج لـ «فيرجين دي كوبر». وهذا وعدٌ.

بدأ في ترتيل صلاواته بشكلٍ آليٍّ. أحيانًا يكون متعبًا ولا يتذكَّر النص كاملًا. ولكنَّهُ يقوله سريعًا وبشكلٍ آليٍّ؛ لكي يتفادى الأجزاء التي لا يحفظها: يا مريم، ساعديني لأقتل هذه السمكة الرائعة.

بدأ يشعر أنه أفضل مع تلاوته لكل هذه الصلاوات وتكرارها. ولكنه في الحقيقة كان يُعاني بشكلٍ أكبر مِن أن تداويه الصلاوات. مال على مُقدِّمة القارب، وبدأ آليًّا يُحرِّك أصابع يده اليُسرى التي كانت تُعاني مِن الشد.

كانت الشمس الآن أكثر حرارةً على الرغم مِن أنَّ النسيم ارتفع أكثر.

-مِن الأفضل: أن أُزوِّد أحد خيوط المـؤخرة بطُعْمٍ جديدٍ. رُبَّما يُقرِّر أن يبقى ليلةً أُخرى دون أن يصعد مِن جديدٍ، وحينها سأحتاج أن آكل مَرَّةً، كما أنَّ الماء الذي معي في الزجاجة قد أصبح قليلًا. لا أظنُّ أنه سيمكنني اصطياد شيءٍ غير الدلافين هنا، ولكنني لو أكلته طازجًا، رُبَّما لا يكون سيئًا. أتمنَّى لو تأتي أسماكٌ طائرةٌ بالقرب منِّي في الليل. هي ممتازةٌ في الأكل دون أن تحتاج للطهي أو التقطيع. يجب أن أحتفظ بكل قواي الآن. أيها المسيح، أنا لا أعلم كم هو قويٌّ، ولكنني سوف أقتله على الرغم مِن ذلك. بكل عظمته ومجده سأقتله.

على الرغم مِن أنَّ هذا ليس عدلًا. ولكنني سأُريه ما يُمكن أن يقوم به رَجُلٌ واحدٌ وحيدٌ. وإلى أيِّ حدٍّ يُمكن أن يكون إصرارَهُ.

- قلتُ للصبي إنني عجوزٌ غريبٌ. الآن حان وقت أن أُثبت له ذلك.

كان قد أثبت فيه ذلك الأمر آلاف المرَّات مِن قَبل. ولكنها لا تعني له شيئًا الآن. دائمًا ما يُثبِت ذلك في كل مَرَّةٍ مِن جديدٍ. كل مَرَّةٍ هي مَرَّةٌ جديدةٌ، ولم يُفكِّرْ أبدًا في الماضي وإنجازاته وهو يقوم بذلك مَرَّةً بعد أُخرى.

أتمنَّى لو ينام، ويُمكنني أن أنام وأحلم بالأسود في الغابات مِن جديدٍ. لماذا الأسود هي حلمي الذي بقى معي كل هذا الوقت؟

-لا تُفكِّرْ كثيرًا أيها العجوز. ارتحِ الآن، واسندْ ظهرك إلى القارب، ولا تُفكِّر في شيءٍ. هو يعمل في الماء تحتك، فاعمل أنت أيضًا بقدر ما تستطيعُ.

إنها تقترب مِن الظهيرة، ولا يزال القارب يسير ببطءٍ وثباتٍ، ولكنه مع ذلك كان يشعر أنَّ القارب أصبح أسرع بعض الشيء مع النسيم الآتي مِن الشرق. ولا يزال العجوز يقود بهدوءٍ ورويةٍ. وألم ظهره أيضًا لا يزال موجودًا.

بعد الظهيرة، ارتفع الخيط مَرَّةً أُخرى. ولكن السمكة استمرت في السباحة على مستوًى أعلى وأكثر وضوحًا وقُربًا مِن السطح. كانت الشمس ساقطةً على جسد العجوز: ذراعه وكتفه وظهره. لذا عرف حينها أنَّ المارلين تتجِّه للشمال الشرقي.

الآن يُمكنني أن أراه مَرَّةً أُخرى وهو يسبح في الماء بزعانفه الصدرية الأرجوانية وذيله الضخم الذي يقطع ظلمة الماء. أتعجَّبُ كيف يُمكن أن يرى في ظلمة الأعماق بعينيه تلك. أنا يُمكنني أن أرى قليلًا في الظلام. ليس في الظلام المطلق، ولكن فقط كما يُمكن للقطط أن ترى.

الشمس تمرُّ بحركتها الثابتة على أصابعه التي لم يمر كثيرًا على تخلُّصِها مِن الشدّ كليًّا. بدأ ينقل الثقل مِن كتفٍ لآخر؛ حتَّى يُخفِّف الحمل على عضلات ظهره التي لو كانت تتحدَّث لاستهجنتْ ما يحدث معها.

-لو لم تتعبي يا مارلين، فهذا لا يُمكن أن يعني سوى أنَّكِ غريبةٌ جدًّا!

شعر أنه متعبٌ للغاية الآن، وهو يعلم أنَّ الليل سيأتي قريبًا. فكَّر في أشياء أُخرى كثيرةٍ. فكَّر في دوريات البيسبول الكُبرى. وكان يعلم حينها أنَّ «يانكيز أوف نيويورك» قد لاعب «تايجرز أوف ديترويت».

اليوم هو الثاني ولا أعرف نتائج المباريات إلى الآن. ولكن يجب أن يكون لديَّ ثقةٌ، ويجب أن أكون مثل دي ماجيو العظيم الذي كان يقوم بكل شيءٍ بشكلٍ مثاليٍّ، حتَّى عندما كان يُعاني مِن آلام النقرس في كعب قدمه. ماذا يُمكن أن تكون طبيعة الألم الذي يُسبِّبُهُ النقرس؟ لا يمكنني أن أعرف بالتأكيد؛ لأنني لم أُجربه. هل يُمكن أن يكون ألم النقرس أشدَّ مما أنا فيه؟ هل يُمكن أن يكون ما أنا فيه أكثر ألـمًا مِن مصارعة الديك؟ لا أعتقد أنه يُمكنني المثابرة لدرجة أن أفقد إحدى عينيَّ في صراعٍ أو معركةٍ مثل معارك الديكة. ولكنَّني لا زلتُ أُفضِّلُ أن أكون مكان ذلك الوحش الذي يُرافقني وهو في الأعماق كل ذلك الوقت.

-لو أتت أسماك القرش، فليرحمنا الرب، أنا وهو!

هل تعتقد أنَّ دي ماجيو العظيم كان سيقضي كل هذا الوقت صامدًا أمام هذه السمكة؟ أنا متأكدٌ أنه كان سيفعل ذلك. لقد كان قويًّا في صغره. كما أنَّ والده كان صيَّادًا. ولكنْ ألمْ تكن آلام النقرس ستزداد وتُؤلمه بشكلٍ أكبر مع كل هذا الوقت مِن المعاناة في مواجهة هذه المارلين.

-لا أعرف. لم يُصبني النقرس مِن قَبل لأستطيع أن أحكم على ذلك.

مع غروب الشمس، ولكي يُعطي نفْسه المزيد مِن الثقة، تذكَّر ذلك الوقت الذي كان فيه في حانة كازابلانكا، عندما لاعبَ ذلك الضخم أسود البشرة مِن «سينفيجوس» مصارعة اليد. ذلك الرجل كان أقوى أولئك الذين

يعملون في أحواض السُّفن الكُبرى. قضيا حينها يومًا وليلةً ومرفقاهما ينتصبان على الطاولة، وساعداهما مستقيمان، ويدُ كلٍّ منهما قابضة بإحكامٍ على يد الآخر. كلُّ واحدٍ منهما يُحاول أن يتغلَّب على الآخر، ويُجبِر يد خصمه على أن تلمس الطاولة. كان هناك الكثير مِن الرهانات والمراهنين يجلسون في الغُرفة تحت أضواء الكيروسين بعض الوقت، ويخرجون، ثُمَّ يعودون مِن جديدٍ، وينظرون إلى ذراع ويد ووجه كلا المنافسينِ. كانوا يُبدِّلون الحكَّام كلَّ أربع ساعاتٍ بعد الثماني ساعات الأُولى؛ لكي يتمكَّن الحكَّام مِن أخذ قسطٍ مِن النوم.

دفق الدم مِن أصابع كل منهما، نظرا في عيني بعضهما، والمراهنون يدخلون ويخرجون مِن الغرفة، ويجلسون على المقاعد الخشبية في مواجهة الساعة الـمُعلَّقة على الحائط. كانت الحوائط خشبيةً ومدهونةً باللون الأزرق اللامع، وكان ظلّ المنافس الأسود ضخمًا للغاية، ويتحرك على الحائط كلما هبَّ النسيم على لمبات الكيروسين، فتتمايل شعلتها.

ظلَّت الأفضلية تتأرجح بينهما طوال الليل. أعطى المراهنون الأسود الضخم بعض الرُّوم، وأشعلوا له السجائر. أحس بعدها الضخم أنه أفضل كثيرًا، فبذل المزيد مِن الجهد ليقضي على العجوز الذي لم يكن حينها «العجوز»، ولكنه كان «سانتياجو إل كامبيون» (البطل)، وقد وصل الأسود إلى أنه كان قريبًا للفوز، ويد العجوز تبعد بثلاث إنشاتٍ عن الطاولة، ولكن العجوز بعث يده مَرَّةً أُخرى مِن الموت، وأعاد الأمر إلى الاتزان مِن جديدٍ. كان لدى سانتياجو يقينٌ بأنه سيتغلب على خصمه الذي كان رجلًا رياضيًّا عظيمًا. ومع ضوء النهار، كان المراهنون يتحدثون حول أن الأمر

سيذهب إلى التعادل. أمَّا الحكَّام؛ فكانوا يهزّون رؤوسهم رافضين ذلك. أطلق العجوز كل ما به مِن طاقةٍ، وبجهدٍ غير عاديٍّ أجبر يد خصمه على أن تستقر على سطح الطاولة الخشبي.

كانت المباراة قد بدأت صباح الأحد، وانتهت صباح الاثنين. الكثيرُ مِن المراهنين كانوا يُطالبون بأن تكون النتيجة هي التعادل؛ لأنه كان يجب عليهم أن يذهبوا لأعمالهم في مصانع تعبئة السُّكَّر، أو شركة هافانا للفحم. ومِن ناحيةٍ أُخرى، كان الجميع يريد لذلك النزال أن ينتهي؛ فقد تعبوا مِن مراقبة الخصمين طوال الليل. ولكن الخصم الضخم انهار في النهاية، وقبل أن يذهب أيُّ شخصٍ مِن الحاضرين إلى عمله.

لوقتٍ طويلٍ بعد ذلك، ظل الجميع يدعونه «البطل»، وقد كانت هناك مباراة عودةٍ في الربيع. ولكن لم تكن هناك الكثير مِن المراهنات عليها، كما أن العجوز فاز بها بسهولةٍ أكبر. كانت ثقة الأسود الضخم قد انكسرت بخسارته المباراة الأُولى.

لعب بعد ذلك عددًا مِن المباريات، ولكنه لم يستمر. عَرِفَ أنه يستطيع هزيمة أيِّ شخصٍ، ولكنه كان يعلم أنَّ ذلك سيكون ذا ضررٍ على يده اليُمنى التي يحتاجها في الصيد. تدرَّب على أن يخوض تلك المباريات بيده اليُسرى، ولكنها دائمًا ما كانت تخونه، ولا تقوم بالأمر كما يرغب، ففقد ثقته فيها.

الشمس ستبدأ في فقد حرارتها الآن. لا يجب أن تُصاب يدي بشدٍّ عضليٍّ مَرَّةً أُخرى إن كان الطقس سيصبح باردًا في الليل. أتساءل: أيّ شيءٍ سوف يحمله إلينا هذا الليل.

مرَّت طائرةٌ فوق رأسه. كانت تبدو في طريقها إلى ميامي. شاهدها وهو يتأمل ظلها الذي كان يهرع على سطح الماء، فوق أسراب الأسماك الطائرة.

-مع كل هذا العدد مِن الأسماك الطائرة، يجب أن يكون هناك أسماك دلوفين بينها.

قالها، والتفت إلى الوراء؛ ليرى إن كان في الإمكان أن يجد أيَّ شيءٍ يُمكن أن يصطاده. ولكنَّهُ لم يستطع فعل ذلك؛ لأنَّ المارلين كانت تشدُّ الخيط بصلابتها. حتَّى إن قطرات المياه كانت تتناثر مِن على الخيط، كما لو كان الأمر يبدو أنه إشارةٌ لقرب خروجها مِن الماء. تحرَّك القارب للأمام ببطءٍ، وظل العجوز يُشاهد الطائرة حتَّى لم تعد ظاهرةً للأعين في الأفق.

يجب أن يكون أمر مشاهدة المحيط مِن الطائرة غريبًا للغاية. أتساءلُ: كيف يبدو البحر مِن هذا الارتفاع. أظنُّ أنهم يجب أن يُكونوا قادرين على رؤية الأسماك جيدًا لو لم يكونوا مُحلِّقين على ارتفاعٍ كبيرٍ. أودُّ أن أطير على ارتفاعٍ منخفضٍ، مائتي قامة مثلًا، وأرى الأسماك مِن أعلى. في قوارب اصطياد السلاحف، كنتُ أراقب البحر مِن قمة الصاري، ومِن هذا الارتفاع كان يُمكنني مشاهدة الدلافين التي كانت ألوانها تبدو أكثر خضرةً، كما استطعتُ رؤية زعانفها ذات البقع الأرجوانية، كما أمكنني ذلك أيضًا مِن رؤية أسراب السمك كلها كاملةً وهي تسبح. لماذا كل الأسماك التي تسبح على أعماقٍ كبيرةٍ لديها بقعٌ أرجوانيةٌ على جسدها أو زعانفها؟ وعلى الرغم مِن أنَّ الدولفين يبدو ذا لونٍ أخضر، إلَّا أنَّ جسدَهُ في الحقيقة فضيٌّ لامعٌ. ولكن عندما يظهر على سطح الماء ليأكل تظهر البقع الأرجوانية على جانبيه مثل المارلين. هل يعني هذا أنه يكون

غاضبًا؟ أم أنَّ سرعته العالية هي ما تجعل تلك البقع تظهر؟

قبل أن تُظلِم السماء، كان يتخطَّى جزيرةً عظيمةً مِن طحالب السرخس. بدا الأمر وكأنَّ المحيط يُمارس الحب مع المارلين تحت هذا الدثار الأصفر. وفي تلك اللحظة، علق دولفين في الخيط الصغير الذي كان يُحاول أن يصطاد به شيئًا ليأكله. رآه في البداية عندما قفز في الهواء في حركاتٍ بهلوانيةٍ، وكان لونه ذهبيًّا للغاية في الشمس، وكان يتلوَّى ويضرب في الهواء بشراسةٍ. قفز مَرَّةً بعد أُخرى في حركاتٍ اكروباتيةٍ خائفًا، فعاد العجوز لمؤخرة القارب، ممسكًا بالخيط الكبير بإحكامٍ، مُتحمِّلًا الألم في ذراعه الأيمن، سحب الدولفين للداخل بيده اليُسرى وبكرة خيط الدولفين تحت قدمه اليُسرى.

عندما أدخل الدولفين إلى مُؤخِّرة القارب، ضربه بقوةٍ شديدةٍ حتَّى توقفتْ حركتُهُ، فقطَّعَهُ مِن جانبيه إلى الآخر. اتكأ العجوز على مُؤخِّرة القارب رافعًا السمكة الذهبية اللامعة ببقعها الأرجوانية على مؤخرتها. رأى فمها الذي يتحرَّك مُتشنِّجًا في رعشاتٍ سريعةٍ عكس اتجاه الخطَّاف. وضعها أسفل القارب بجسدها الطويل المستوي بعد أن شقَّها نصفين. كان لا يزالُ رأسها وذيلها يرتعشان منذ أن اصطادها وحتَّى الآن.

خلع الخطَّاف مِن فم الدولفين، وأعاد وضع طُعْم آخر فيه، وألقاه في الماء مِن جديدٍ. ثُمَّ عاد لعمله بهدوءٍ وبطءٍ في مُقدِّمة القارب. غسل يده اليُسرى في الماء، ومسحها في سرواله، ثُمَّ نقل الخيط الثقيل مِن يده اليُمنى لليُسرى، وهو يشاهد الشمس تتوارى خلف المحيط، وكان ميل الخيط الكبير كما هو.

-لم يتغير الأمر على أيِّ حالٍ، ولكن مشاهدة حركة الماء في عكس اتجاه يده، جعلته يُلاحِظ أنه أصبح أكثر بطئًا بشكلٍ ملموسٍ.

- سأضرب المؤخرة بقوة بالمجاديف، وهذا سيجعله يتحرَّك بسرعةٍ أبطأَ في الليل، هو يكون جيدًا في الليل، وأنا أيضًا.

سيكون مِن الأفضل أن آكل الدولفين مُتأخِّرًا قليلًا. يُمكنني أن أفعل ذلك وأنا أُجدِّفُ بقوةٍ أكبر، فأسحبه جيدًا بشكلٍ أكبر. ولكن مِن الأفضل أن أُحافظ على أن تظلَّ المارلين هادئةً، ولا أزعجها كثيرًا وقت الغروب. فإنه يكون وقتًا عصيبًا على كل الأسماك.

* * *

ترك يده تجف، ثُمَّ جذب الخيط بقدر ما يستطيع، ساحبًا إيَّاه في عكس اتجاه حركة القارب. بدأ حينها يشعر أنَّ القارب يتحرك معه بالفعل.

سأحاول أن أقوم بالأمر بأفضل ما يمكنني. تذكر أنه لم يأكل منذ أن علقِ الطُّعم في فمه وهو ضخمٌ ويحتاج للطعام. لقد أكلت البونيتو، وغدًا سآكل الدولفين -كان يدعوه «دورادو». ربما يجب أن آكل بعضها بعد أن أنظفها. ستكون أصعب في الأكل مِن البونيتو. ولكن ليس هناك شيءٌ سهلٌ في كل الأحوال.

-بمَ تشعرين الآن مارلين؟ أشعر أنني بخيرٍ، ويدي اليُسرى أفضل مِن ذي قبل، ولديَّ طعامٌ ليومٍ وليلةٍ. اسحبي القارب يا مارلين.

لم يكن للحق يشعر أنه بخيرٍ؛ لأن الألم الذي يُسببه الخيط على ظهره كان لا يزال ينتابه، كما أنه بدأ يشعر ببلادةٍ وضجرٍ مِن الأمر كله، ولم يعد واثقًا مما سيحدث.

لكن لدي أشياء أفضل أفكر فيها. يدي بها قطعٌ صغيرٌ، والشد الذي كان بالأُخرى ذهب لحاله. قدماي سليمتان. كما أنني كسبتُ رزقي اليوم. لقد أصبحت السماء معتمةً الآن. حدث ذلك بسرعةٍ بعد الغروب. هذا معتادٌ في سبتمبر.

استند بكل ما يستطيع مِن جسده على مُقدِّمة القارب البالية.

ها هي النجوم الأُولى لليل قد ظهرتْ.

لم يكن يعرف أسماءَها، ولكن كان يُمكن أن يراها بوضوحٍ.

ما قيمة أسمائها الآن إذنْ؟ بعد قليلٍ سوف تظهر البقية، وسيكون برفقتي كل الأصدقاء إذنْ.

-هذه السمكة أيضًا صديقتي.

-لم أسمع أو أرى أيَّ سمكةٍ مثلها. ولكن يجب أن أقتلها. أنا ممتنٌ؛ لأنه ليس علينا أن نقتل النجوم أيضًا.

تخيَّلْ لو على الرَّجُلِ منَّا أن يقتل كل يومٍ القمر. سوف يهرب القمر منَّا بالتأكيد. ولكن تخيل لو أنه يجب على المرء محاولة قتل الشمس كل يومٍ؟ لقد ولدنا محظوظين؛ لأننا لسنا مطالبين بذلك.

شعر بعدما فكر في ذلك أنه مدينٌ بالأسف للمارلين؛ لأنها لم تأكلْ أيَّ شيءٍ. لكن لم يقلل حزنه هذا مِن غايته التي حدَّدَهَا منذ البداية ألَّا وهي قتلها.

كم عدد الناس الذين سوف تأكل منها؟ ولكن هل يستحقون أن يأكلوا منها؟ لا، بالطبع لا. لا أحد يستحق أن يأكلها بعد ما أبدته مِن كفاحٍ

وكبرياءَ عظيمين. لا يُمكنني فهم الأمور على نحوٍ جيدٍ دائمًا. ولكنه أمرٌ حسنٌ أنه ليس علينا أن نقتل الشمس أو القمر أو النجوم. يكفي أن نعيش في البحر ونكون مضطرين لقتل أشقائنا الحقيقيين.

يجب الآن أن أفكِّر فيما يخص السحبة التي سأقوم بها. الأمر له مخاطره ومزاياه. رُبَّما أفقد فيها الكثير مِن بكرات الخيط لو قام ببعض الجهد ضدي. يجب عليَّ إذنْ أن أستخدم المجدافين في تلك السحبة في الوقت والمكان المناسب؛ حتَّى لا يفقد الخيط الوزن الذي يجذبه. ربما يكون في الأمر بعض الخطر على سلامتي؛ لأنه قد يسبح سريعًا وبشكلٍ به الكثير مِن الذعر. يجب على أيِّ حالٍ أن أُحضِر الدولفين؛ حتَّى لا يسقط في الماء وآكل بعضه لأتقوَّى.

الآن سأستريح لساعةٍ. أشعر أنه يسبح بثباتٍ وهدوءٍ بعض الشيء. سأذهب لمؤخرة القارب؛ لتنفيذ قراري، وسآخذ قسطًا مِن الراحة. أستطيع في خلال ذلك أن أرى كيف سيقوم بالأمور، ويُمكنني وقتها أن أُلاحِظ لو قام بأيِّ تغييراتٍ على أيِّ نحوٍ.

المجدافان رُبَّما يكونان خدعةً جيدةً، ولكنَّ الأمر وصل لمرحلة أنه لا يُريد أن يلعب على أمنه. هو في كل الأحوال لا يزال سمكةً. ويُمكنني أن أرى الخطَّاف في جانب فمه الذي ما زال مغلقًا بإحكامٍ عليه.

يبدو أنَّ الخطَّاف لم يكن العقاب الوحيد. الجوع أيضًا كان عصيبًا على المارلين. استرخ الآن أيها العجوز، واتركه يعمل حتَّى يأتي الوقت لتقوم بواجبك أيضًا.

أخذ قسطًا مِن الراحة لمدةٍ تقارب الساعتين. لم يظهر القمر حتَّى ذلك الوقت المتأخر، ولم يكن هناك طريقةٌ يتعرف بها على الوقت، كما أنه في الحقيقة لم يرتح في نومه. لم يكن نومًا بقدر ما كان بعض الغفلات المتقطعة. لا يزال يتحمل شدَّ السمكة للخيط، ولكنه وضع يده اليُسرى على حافة مقدمة القارب، وأحس حينها أنَّ السمكة لا تزالُ تقاومه.

كم سيكون الأمر رائعًا لو يمكنني أن أجذب الخيط أسرع. ولكن مع أول ترنُّحٍ للقارب سيتمكن مِن كسر الخطَّاف. يجب أن أسحب بهدوءٍ وبكل جسدي. وأن أكون مُستعدًا طوال الوقت لكي أعطيه المزيد مِن الخيط كلما يحتاج.

-ولكنك لم تنم حتَّى الآن أيها العجوز. يومٌ وليلةٌ كاملان دون نومٍ! وها هو يومٌ آخر سيبدأ، وستكون مشوش الذهن.

أشعر أنَّ ذهني صافٍ إلى حدٍّ بعيدٍ. صافٍ للغاية مثل النجوم التي هي بمثابة إخوتي. ولكني لا زلتُ أحتاج إلى أن أنام. هم ينامون: القمر والشمس والنجوم. حتَّى المحيط ينام أحيانًا لأيَّامٍ. عندما لا يكون هناك أيُّ رياحٍ والطقس هادئٌ.

ولكن تذكر أن تنام. أجبرْ نفْسك على فعل ذلك، وابتكر طريقةً بسيطةً ومضمونةً فيما يخص خيوط الصيد. عد الآن وجهِّز الدولفين. إنه خطيرٌ للغاية أن تتلاعب بالمجدافين، فتسحبه فجأةً، وأنت نائمٌ.

- يُمكنني أن أمضي قدمًا دون نومٍ. ولكنه سيكون أمرًا خطيرًا للغاية.

بدأ في محاولة العودة إلى مؤخرة القارب على يديه وركبتيه. كان حَذِرًا في ألَّا يقوم بأيِّ شيءٍ يُمكن أن يزعج السمكة.

يُمكنه أن ينام نصف مغمضٍ. ولكن لا أريده أن يرتاح. يجب أن يظلَّ يسحب حتَّى يموت.

عاد إلى المؤخرة، وأمسك بيده اليُسرى الخيط مِن على كتفه، وأخرج سكِّينه مِن غمده بيده اليُمنى. كانت النجوم تلمع الآن، ورأى الدولفين بوضوحٍ. وضع إحدى قدميه على الدولفين، ثُمَّ شقَّهُ بسرعةٍ مِن موضع الإخراج حتَّى أعلى رأسه، ثُمَّ وضع السكِّين جانبًا، وبدأ يتناول شرائح منه بيده اليُمنى، ويشفط سائله، بعدما نزع الخياشيم مِن جسده؛ ليكون نظيفًا تمامًا. شعر به ثقيلًا في فمه وهو يأكله كما كان زلِقًا، وهو ممسكٌ به بين يديه. تذكر حينها أنَّ هناك سمكتين طائرتين قد اصطادمها، ولا تزالانِ طازجتين. ألقى العجوز بأحشاء الدولفين مِن على حافة مؤخرة القارب. كان الدولفين باردًا ولونه الأبيض المائل للرمادي يلمع الآن، وقد سلخ العجوز جانبًا منه ممسكًا بقدمه اليُمنى رأسه، ثُمَّ قَلَبَهُ؛ ليسلخ الجانب الآخر منه. قطَّع بعدها كل جزءٍ على حدةٍ، بعيدًا عن الرأس والذيل، وجعل ما تبقَّى مِن الدولفين يسقط في الماء منزلقًا مِن على حافة القارب. مدَّ رأسه لينظر في الماء؛ ليعرف إن كانت هناك دواماتٌ، ولكنه لم يجد شيئًا سوى ما تبقَّى مِن الدولفين في طريقه إلى قاع المحيط. عاد لموضعه مِن جديدٍ واضعًا السمكتين الطائرتين في شبكتين، ثُمَّ أعاد السكِّين إلى غمده مِن جديدٍ. شعر بظهره يؤلمه مِن وزن المارلين الذي كان يحمله بالخيط وهو ممسكٌ إيَّاه بيده اليُمنى.

عاد إلى مُقدِّمة القارب، حيث وضع الدولفين بعدما أخلاه مِن العظم جوار السمكين الطائرتين على مقدمة القارب الخشبي. أعاد بعدها الخيط

إلى كتفه في مكانٍ جديدٍ ممسكًا إيَّاه بيده اليُسرى، مُستندًا إلى حافة القارب، ومائلًا على جانبه؛ ليغسل السمكتين الطائرتين في الماء. لم يكن هناك أيُّ حركة تيار تقريبًا في الماء. كانت يده قد أصبحت فسفوريةً مِن أثر جلد السمكتين الطائرتين. كان انسياب الماء ضعيفًا لدرجة أنه اضطر لفركها في جانب جسد القارب مِن الخارج، فتساقطت أجزاءٌ مِن الطبقة ذات اللون الفسفوري، وطفتْ، ثُمَّ تحرَّكتْ بهدوءٍ إلى خلف القارب.

- هل هو متعبٌ أم يشعر بالراحة؟ فلآكل الآن بعضًا مِن الدولفين، ولآخذ قسطًا مِن النوم لأرتاح قليلًا.

تحت النجوم وبينما برودة الليل تزداد، أكل نصف شريحةٍ مِن لحم الدولفين، وواحدةً مِن الأسماك الطائرة التي التهمها كلها بعدما نزع رأسها فقط.

-يا لها مِن سمكة دولفين ممتازةٍ. أظنها مناسبةً للطهي.

-يا له مِن شيءٍ بائسٍ أن آكلها دون طهيٍ. لن أذهب للصيد مَرَّةً أُخرى دون أن أضع في القارب ملحًا أو ليمونًا.

لو لديَّ القليل مِن العقل، لكان يجب عليَّ رشّ الماء طوال اليوم على مقدمة القارب. كان ذلك سيجفف ماء البحر وهو منثورٌ على الدولفين، لتعرضه للشمس وتصبح حينها ملحًا يُمكن أن استخدمه. يجب بعد ذلك ألَّا أصطاد دلافين إلا قبل غروب الشمس. يُمكنني خلال ذلك الوقت أن أجهزها للأكل بشكلٍ جيدٍ. ولكنني على أيِّ حالٍ مضغطُتها جيدًا. ولا أشعر بأيِّ اشمئزازٍ.

تبدو الغيوم تُغطِّي السماء مِن ناحية الشرق. وواحدة بعد أُخرى أخذت

النجوم التي يعرفها تتوارى خلف تلك القطع القطنية التي المعلقة في السماء. تبدو السحب آخذةً في الازدياد، ومع توقُّف حركة الرياح تمامًا، بدا الأمر في حينها كما لو أنه يسير في وادٍ عظيمٍ مِن السحب.

قبض بإحكامٍ على الخيط بيده اليُمنى، ثُمَّ دفع فخذه عكس اتجاه يده اليُمنى، ومال بكل وزنه عكس المقدمة الخشبية، ثُمَّ مرَّر الخيط لأسفل قليلًا على كتفه، وتحكم فيه بيده اليُسرى.

يدي اليُمنى يُمكنها أن تظلَّ قابضةً على الخيط كما هي بثباتٍ. لو ارتخت أثناء النوم سوف توقظها حركة يدي اليُسرى في حالة انسياب الخيط منها.

وزيادةً في الأمان، سوف يضع ساقه على يده اليُمنى. وبذلك، حتَّى لو نام لعشرين دقيقةً أو نصف ساعةٍ سيكون هذا مُعدَّلًا ذهبيًّا. مال إلى الأمام شادًّا ظهره عكس اتجاه الخيط، واضعًا وزنه كله على يده اليُمنى. بدأ النوم يأتيه، ولم يحلم هذه المرة بالأُسُود. ولكن بدلًا مِن ذلك، حلم بسربٍ ضخمٍ مِن أسماك خنزير البحر. كان سربًا ضخمًا يبلغ طوله ثمانية أو عشرة أميالٍ، وكانت في وقت تزاوجها حيث رأى الكثير منها يثبُ عاليًا في الهواء، ويعود مِن جديدٍ لنفْس المكان الذي قفزت منه في الماء.

ثُمَّ حلم أنه نائمٌ على سريرٍ في قريةٍ، وكانت هناك رياحٌ شماليةٌ باردةٌ. شعر بالبرد على ذراعه الأيمن، والذي كان نائمًا هو أيضًا، مُسنِدًا رأسه إليه، وكأنه وسادةٌ.

بعد أن بدأ يحلم بالشواطئ الطويلة الصفراء، وبدأت الأُسُود تأتيه في ظلمة الفجر وهو يريح ذقنه على المقدمة الخشبية للسفينة التي كانت راسيةً

في الماء بعيدًا بعض الشيء عن نسيم الشاطئ. انتظر ليرى إن كانت ستأتي أُسُود أُخرى أو لا. لقد كان سعيدًا بحقٍّ وهو نائمٌ.

كان القمر هناك لوقتٍ طويلٍ، ولكنه نام وهو ممسكٌ بالسمكة التي تسحبه بثباتٍ، والقارب يسير بين وادي الغيوم.

استيقظ على رعشةٍ في يده اليُمنى آتية عكس اتجاه وجهه، والخيط يحرق يده. لم يكن هناك أيُّ إحساسٍ بيده اليُسرى. كل ما أدركه أنَّ يده اليُمنى تحرقه، وأنَّ الخيط قد فلت منه. وجدتْ يدُهُ الخيط أخيرًا، فمال عكس اتجاهه وهو يجذبه بيده التي كانت تحرقه بشدَّةٍ مُحاوِلًا أن يستعيد الإحساس بيده اليُسرى بوضعه كل الضغط والوزن عليها، حتَّى وجد أنَّ قَطْعًا بالغًا قد أحدثه بها. نظر خلفه للبكرات وهي تُغذِّي الخيط بانسيابيةٍ. وفجأةً، قفزت السمكة، ثُمَّ سقطتْ في الماء مُحدِثةً شيئًا يُشبه الانفجار في المحيط مِن ثقلها. ثُمَّ قفزت مَرَّةً بعد أُخرى، والقارب يذهب وراءها سريعًا على الرغم مِن أنَّ العجوز صعد على مؤخرته، وأخذ يسحب الخيط لأسفل جاذبًا إيَّاه مِن مُقدِّمة القارب، ولكنه لم يتمكَّنْ حينها مِن تحريكه.

هذا ما كنَّا في انتظاره. الآن لنجعله يأخذها. لنجعله يدفع بعض التكلفة مِن أجل أن يأخذ المزيد مِن الخيط. لنجعله يدفع الثمن.

لم يستطع أن يرى قفزات المارلين، لكنه سمع كسرها لسطح المحيط ولطماتها الثقيلة، كما شعر بسرعة الخيط التي قطعتْ يده بشكلٍ سيئٍ للغاية، ولكنه كان يعلم أنَّ كل ذلك سيحدث، وحاول أن يضع الخيط على الأجزاء الصلبة مِن يده، ولا يتركه ينزلق لكفه أو إحدى أصابعه؛ لأنه كان يخشى أن يقطعها وتتعطل يده تمامًا عن العمل.

لو كان الصبي هنا، كان سيرطب بكرات الخيط. نعم لو كان الصبي هنا. لو كان الصبي هنا.

أخذت المارلين تسحب المزيد والمزيد مِن الخيط، ولكن كان ذلك يحدث الآن بشكلٍ أبطأ مِن ذي قَبل. سمح للسمكة أن تربح المزيد مِن الخيط حيث كان واقفًا فوق مقدمة القارب. جلس على ركبتيه، ثُمَّ حاول بعدها القيام ببطءٍ. تخلَّى عن الخيط أكثر، ولكن هذه المرة بشكلٍ أبطأ. عاد للعمل حيث يمكن أن يشعر ببكرات الخيط تحت قدميه، والتي لم يكن يستطيع أن يراها الآن مِن انشغاله الشديد في معركته. هناك الكثير مِن الخيط لا يزال معه، وكلما سحبت السمكة جزءًا، يرمي لها بخيطٍ جديدٍ في الماء.

إنه الآن قفز أكثر مِن عشر مراتٍ، وقد امتلأت أكياس تنفس الهواء على ظهره بالماء. فلا أظن إذنْ أنَّ في إمكانه السباحة على عمقٍ كبيرٍ. رُبَّما يؤدِّي ذلك إلى موته، ولا يُمكنني حينها سحبه لأعلى.

سيبدأ في الدوران قريبًا، وحينها يجب أن أعمل على الإمساك به. أتعجَّب، أيّ شيءٍ جعله يقفز هكذا فجأةً؟ هل الجوع قد جعله محبطًا؟ أم أنَّ هناك شيئًا أثار خوفه في الليل؟ رُبَّما يكون شعر بالخوف فجأةً. ولكنه الآن يبدو هادئًا وقويًّا وواثقًا في نفْسه، ولا يظهر عليه إشارات الخوف. هذ غريبٌ!

-مِن الأفضل أن تكون غير خائفٍ، وواثقًا في نفْسك. أن تكون رجلًا عجوزًا. أنت تمسك بالخيط مَرَّةً أُخرى، ولكنك لا تستطيع أن تأخذه أكثر مِن ذلك، قليلًا، وسيدور مِن جديدٍ.

أمسك العجوز الخيط بيده اليُسرى مِن جديدٍ، وأسنده على كتفه، ثُمَّ رفع بعض الماء بيده اليُمنى ليمسح وجهه. كان يخاف مِن الإعياء، ومِن ثَمَّ يفقد قوته.

عندما أصبح وجهه نظيفًا، مسح يده اليُمنى، وتركها في الملح، حتَّى رأى أول خيوط الضوء في السماء.

يبدو أن يتجِّه غربًا. هذا يعني أنه تعب، وترك نفْسه يتحرك مع التيار. قريبًا سيدور حول القارب، وسيبدأ حينها عملنا.

رفع يده اليُمنى مِن الماء، ونظر إليها بعد أن شعر أنه قد تركها لوقتٍ كافٍ.

-ليست سيئةً. الرجل لا يهمه الألم.

قبض على الخيط بحذرٍ، والآن يُمكنه أن يضع يده اليُسرى في الماء مِن على الجانب الآخر للقارب.

-لم تسر الأمور بهذا الشكل السيئ مِن أجل لا شيء. ولكن هناك لحظةً لم أستطع أن أجدك فيها.

كان يقول ذلك بصوتٍ مسموعٍ، وهو ينظر إلى يده اليُسرى.

لماذا لم أولد بيدين بنفْس القوة؟ ربما ذلك خطأي؛ لأنني لم أُدرِّب اليُسرى بشكلٍ جيدٍ. ولكن الله يعلم أنَّ لديَّ فرصًا كافيةً لأتعلم. لم تقم بالأمر على نحوٍ سيئٍ هذه الليلة على الرغم مِن أنه قد حدث لها شيءٌ ما لم أفهمه. لو شعرتُ بشدٍّ في يدي مَرَّةً أُخرى، فلأترك حينها الخيط يقطعها.

عندما فكَّر في كل ذلك، عرف أنَّ ذهنه غير صافٍ. كان عليه حينها أن يأكل بعضًا مِن الدولفين.

-ولكن لا أستطيع. مِن الأفضل أن تكون رأسك غير صافيةٍ، على أن تفقد قوتك مِن جرَّاء الغثيان. وأنا أعلم أنه لا يُمكنني أن أتحمَّل مذاقها لو أكلتها. سوف أتركها للطوارئ حتَّى تسوءُ الأمور. ولكنَّهُ سيكون مُتأخِّرًا أن تُحاول استعادة قوتك الآن عن طريق أن تأكلها.

-أنت غبيٌّ. كُل السمكة الطائرة الأُخرى.

إنها هناك، نظيفةٌ وجاهزةٌ للأكل. التقطها بيده اليُسرى، وأكلها ومضغها جيدًا حتَّى عظامها وذيلها بحرصٍ وتمهُّلٍ.

لديَّ مؤونةٌ إضافيةٌ عن أيِّ سمكةٍ. على الأقل مقدار القوة التي يُمكن أن أحتاجه. الآن أصبحتُ جاهزًا له بكلِّ ما أحتاج. لنتركه يبدأ في الدوران، ولتأتي المعركة إلينا.

هذا هو الشروق الثالث إذنْ منذ بدأنا الأمر، وها هو الآن يبدأ في الدوران.

لم يستطعْ أن يرى مِن خلال ميل الخيط إن كانت السمكة تدورُ أو لا. إنه مِن الـمُبكِّر للغاية أن يتمكَّن مِن ذلك. فقط لاحظ تباطؤًا خافتًا في الضغط على الخيط، وقد بدأ في سحبه بلطفٍ بيده اليُمنى. هي مقبوضٌ عليها كما هي العادة، ولكن ما إن وصل لنقطةٍ حيث يمكن أن تكسر الخيط، حتَّى بدأ يعطيها المزيد مِن الخيط مِن جديدٍ. خلَّص رأسه وكتفه بهدوءٍ مِن تحت الخيط، وبدأ في سحبه بثباتٍ وهدوءٍ، مُستخدِمًا يديه متأرجحًا بجسده وهو يُحاول أن يقوم بكل ما يستطيع بجسده؛ ليستمر في سحب الخيط.

-إنها تصنع دائرةً كبيرةً للغاية. ولكنه يدور.

شعر أنَّ الخيط لن يأتي أكثر مِن ذلك. هو قابضٌ عليه لدرجة أنَّ قطرات الماء تتقافز مِن عليه تحت أشعة الشمس. جلس العجوز على ركبتيه، وتركها تذهب بعيدًا، معطيًا إيَّاها ما تحتاج مِن الخيط، ها هي جولةٌ أُخرى مِن المعركة ستبدأ.

هو الآن يمرُّ بالجزء الأكثر بعدًا مِن الدائرة. يجب إذنْ أن أُحكم قبضتي قدر الإمكان. رُبَّما في خلال ساعاتٍ سآراه. الآن يجب أن أُقنعه بالقدوم قريبًا، ومِن ثَمَّ يجب عليَّ أن أقتله.

ولكنَّ السمكة ظلت تدور ببطءٍ، وجسد العجوز يزداد تعرُّقًا وتعبًا. كما أنه كان يشعر بألمٍ في كل عظام جسده، ولكن الدوائر التي تسيرُ فيها المارلين كانت قد أصبحتْ أقصر، وهنا يُمكنه أن يقول أنه قد قارب على الصعود.

لمدة ساعةٍ، استطاع العجوز أن يرى بوضوحٍ بقعًا سوداءَ على جسد السمكة، وقد ملَّح العرق جفنيه والجرح الموجود أسفل عينه والآخر الذي على جبينه.

كان قلقًا بعض الشيء بعدما أصابه الدوار والضعف مِن جرَّاء المقاومة في تلك المعركة.

-لا أستطيع أن أستسلم وأموت أمام خصمٍ مثله، بعدما أصبح الآن في إمكاني اصطياده. ساعدني يا إلهي؛ كي أُثابر حتَّى النهاية. سوف أُصلِّي إليك بأنشودة «آبائنا» و«ماريا العذراء» مائة مَرَّةٍ، ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن بينما أُواجه هذا الوحش.

فلتحسبني قد قلتهم. صدقني سأُصلِّي لا حقًا.

شعر في تلك اللحظة بخبطٍ وقرعٍ مُفاجِئٍ على الخيط الذي كان قابضًا عليه بيديه الاثنتين. كانت مقاومة المارلين عصيبةً، والخيط يضغط على يده بحدَّةٍ، والوزن ثقيلٌ للغاية.

إنه يضرب الخيط بسيفه. يبدو أنه مُصمِّمٌ على أن يقترب. بالطبع يجب أن يفعل ذلك. رُبَّما يجعله ذلك يقفز على الرغم مِن أنني أُفضِّل أن يظلَّ يدور للمزيد مِن الوقت. لا مفرَّ مِن أن يقفز؛ لأنه يحتاج لأخذ بعض الهواء، ولكنني أظنه سيفعل ذلك بعدما يُوسِّع موضع الخطَّاف في فمه؛ ليحاول التخلص منه.

-لا تقفزي يا مارلين. لا تقفزي.

ضربت السمكة الخيط عدَّة مرَّاتٍ، وكلما هزَّتْ رأسها، كلما أعطاها العجوز المزيد مِن الخيط.

يجب أن أحتوي ألمها مهما كان حجمه. ألمي لا يهمُّ كثيرًا. أنا أستطيع أن أسيطر على نفْسي، ولكنَّ ألمها يُمكن أن يقودها إلى الجنون.

توقَّفت السمكة عن العراك بعد مرور بعض الوقت، وعادت للدوران ببطءٍ مِن جديدٍ. بدأ العجوز في سحب الخيط بثباتٍ، ولكنه شعر بالإرهاق مِن جديدٍ. مدَّ يده في ماء البحر، وأخذ بعضًا منها، واضعًا إيَّاه على رأسه، ثُمَّ فرك ببعضه مؤخِّرة رأسه ورقبته.

-سوف يصعد قريبًا، وليس لديَّ أيُّ شدٍّ. يُمكنني إذنْ أن أُنهي الأمر.

يجب أن تُنهي الأمر. لا تتكلم حتَّى حول ذلك.

جلس على ركبتيه عكس اتجاه مقدمة القارب. ترك الخيط للحظةٍ ينساب مِن على ظهره مَرَّةً أُخرى.

سوف أرتاح الآن للحظاتٍ بينما هو يدور في دوائر، ثُمَّ أقوم للعمل معه مِن جديدٍ عندما يعود للمعركة.

كان هذا هو قراره. كان إغراءً كبيرًا ألَّا يجلس في مقدمة القارب ليأخذ بعض الراحة، بينما السمكة تسبح في دورانها. كان يقلقه ألَّا يكون هناك خيطٌ احتياطيٌ، فيتعرض لموقفٍ صعبٍ معها. ولكنه عندما رأى أنَّ هناك شدًّا في الخيط، عرف أنَّ السمكة قد أخذتْ طريقها في العودة إلى القارب مِن جديدٍ. رفع العجوز قدميه مسندًا إيَّاهما على حافة القارب، وبدأ في التمايل وهو يسحب الخيط مُحاوِلًا أن يُحافظ على ثباته دون أن يفقد السمكة.

أنا مُتعَبٌ أكثر مِن أيِّ وقتٍ مضى. كما أنَّ الرياح التجارية قد بدأت الآن في الهبوب، ولكن هذا سيكون جيدًا؛ لأنه سيجعل المارلين تقترب مِن القارب. أنا أحتاج لذلك الخبر ذي الوقع السيئ عليه.

-سأرتاح بينما هو يأخذ دورته للخارج. يمكنني إذنْ أن أشعر بتحسُّنٍ كبيرٍ، ورُبَّما مع دورتين أو ثلاثٍ أستطيع هزيمته.

كانت قبعته المصنوعة مِن القشّ قد استقرت على مؤخرة رأسه، والعرق ينساب مِن جبهته، ومتساقطة قطراته على مقدمة القارب. وبينما كان يسحب الخيط، شعر بالسمكة في طريق عودتها.

أنتِ تعملين الآن أيتها السمكة. سوف آخذُكِ إذنْ في جولةٍ.

ارتفع البحر بشكلٍ ملحوظٍ، ولكن النسيم كان معتدلًا، وهو كان يحتاج لذلك؛ كي يعود للشاطئ مِن جديدٍ بسهولةٍ.

-فقط سوف أُدير الدفة للجنوب الغربي. الرجل حقًّا هو الذي لا يضيعُ في البحر، كما أنها جزيرةٌ ذات ساحلٍ طويلٍ.

هي الآن في دورتها الثالثة، حيث تمكن أخيرًا مِن أن يراها للمرة الأُولى. رآها كظلالٍ داكنةٍ أخذت وقتًا طويلًا لتمرَّ مِن تحت القارب. لم يُصدِّقْ أنها طويلةٌ إلى هذا الحد.

-لا يُمكن أن تكون بهذا الحجم!

ولكنها كانت بهذا الحجم. كانت قد اقتربت مِن السطح فقط بـ ٣٠ ياردةً مع نهاية دورتها. رأى العجوز وقتها ذيلها ظاهرًا فوق سطح الماء. كان أكبر مِن شفرة المنجل، ولونه أرجوانيٌّ شاحبٌ فوق الماء الأزرق الداكن.

كانت تسبح تحت سطح الماء، وكأنها تُمشِّط البحر، حيث تمكن العجوز مِن أن يرى حجمها الضخم وشرائطها الأرجوانية، وزعانفها أسفل دروعها الصدرية كانت مُشرعةً لأقصى درجةٍ ممكنةٍ.

استطاع العجوز أن يرى في خلال دورانها عينيها والسمكتين الرماديتين اللتين تسيرين في ركبها. أحيانًا يلتصقا بها، وأحيانًا أُخرى يبتعدان بعض الشيء. يسبحان بجانبها في بعض الأوقات، وفي بعضٍ آخر يسيران في ظلّها الساقط على بعد أقدامٍ أكثر عمقًا في الماء أسفلها مِن أثر ضوء الشمس الساقط عليها. في بعض الوقت يكونا على بعد أقدامٍ منها، وحينها يسبحان سريعًا كالإنكليس (نوعٌ مِن الأسماك.)؛ حتَّى يلحقا بها.

بدأ العجوز يتعرَّق مِن جديدٍ، ليس مِن الجهد فقط، ولكن أيضًا مِن الشمس التي أخذت حرارتها تزداد. في كل مَرَّةٍ كانت تدور السمكة بشكلٍ هادئٍ ومُسالِم، وكان يكسب المزيد مِن الخيط. جاءه شعورٌ أنه مع دورتين على الحال نفْسه سوف يتمكَّن مِن أن يُصيبها بالرمح.

ولكن يجب أن أجعله يقترب جدًّا. لا يجب أن أُجرِّب ضربه في الرأس، ولكن في القلب مباشرةً ومِن أوَّل مَرَّةٍ.

-كُنْ هادئًا وقويًّا أيها العجوز.

في الانحناءة التي تلت ذلك، ستكون السمكة ظاهرةً فوق الماء، ولكنها ستكون بعيدةً بعض الشيء عن القارب. في الدورة التي بعدها، كانت لا تزالُ بعيدة، ولكنها أقرب لسطح الماء. كان العجوز على يقينٍ أنه في لحظةٍ ما ومع سحبه للخيط ستقترب السمكة بأكبر قدرٍ ممكنٍ مِن القارب.

جهَّز رمحه مبكرًا مع خيوطٍ خفيفةٍ، ربط طرفها فيه، ولف نهايتها بمقدمة القارب.

هي الآن تدور في مسارها ومقتربة مِن القارب بهدوءٍ. تبدو جميلةً. وذيلها الكبير هو فقط ما يظهر مُتحرِّكًا. بدأ العجوز في سحب الخيط ليجعلها أقرب. انحرفت السمكة لوهلةٍ قليلًا عن مسارها، ثُمَّ سارت مستقيمةً آخذةً في بداية دورةٍ جديدةٍ.

-جعلته يُغيِّر اتجاهه. لقد جعلته يدور بعيدًا مِن جديدٍ.

شعر بوهنٍ شديدٍ، ولكنه ظلَّ ممسكًا بالخيط، وبكل قوةٍ يُمكنُهُ بذلها.

لقد جعلته يتحرك. ربما في المرة القادمة يُمكنني أن أقضي عليه.

اسحبيه يا يديَّ. تماسكي يا قدميَّ. أَنْهِ الأمر مِن أجلي يا رأسي. أَنْهِهِ مِن أجلي. لن تذهب هذه المرة، سأسحب وأُنهي الأمر.

ولكن بعد أن بذل كل هذا الجهد، بدأ يسحب بقوةٍ؛ ليجعل السمكة تقترب أكثر ناحية القارب، ولكنها مالت مِن جديدٍ، وسبحتْ بعيدًا.

-أنتِ ستموتين في كل الأحوال أيتها السمكة. هل تريدين أن تقتليني أنا أيضًا؟

ليس هناك ما يُمكن أن أُنجزه بهذه الطريقة. كان فمه جافًّا للغاية، ولم يكن قادرًا على الحديث أو حتَّى الوصول للماء. يجب أن أجلبه أكثر ناحية القارب. لن يكون الأمر جيدًا بعد المزيد مِن الدورات.

نعم، أنتِ رائعٌ يا صديقي، أنت رائعٌ يا عدوي.

كان قريبًا منه في الانعطافة التي تلت ذلك. ولكنَّ السمكة انحرفت مُجدَّدًا وغيَّرَت اتجاهها سابحةً بعيدًا وببطءٍ.

أنتِ تقتلينني أيتها السمكة. ولكن لديك الحق في ذلك. لم أرَ في حياتي ما هو أكبر منكِ، أو أجمل منكِ، أو أهدأ منكِ، أو أكثر نبلًا منكِ يا أختي، يا أخي، يا صديقتي، يا عدوي. تعال واقتلني، لم أعد أهتم مَن منَّا سيقتل الآخر.

أنت الآن مشوَّش الرأس. يجب أن تحافظ على رأسك صافيًا. ابقِ ذهنك صافيًا، وتعلَّمْ كيف تعاني كرَجُلٍ، أو كسمكةٍ.

-كوني صافيةً يا رأسي. فلتكوني صافيةً!

قالها في صوتٍ يكاد يكون مسموعًا بصعوبةٍ.

ولِمَرَّتين، تقوم السمكة بالأمر نفْسه: تقترب، ثُمَّ تنحرف بعيدًا بادئةً دورةً جديدةً.

لا أعلم ما يحدث. أنا لا أعلم لِمَ تفعل ذلك؟ ولكنني سأحاول مَرَّةً أُخرى.

كان يُفكِّر في ذلك، وقد وصل لمرحلةٍ شعر فيها أنه سيسقط مِن الإعياء.

حاول مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، وشعر بنفْسه مِن جديدٍ يتسبب في ابتعاد السمكة عنه. في كل مَرَّةٍ تتجه نحوه، ولكنها تُغيِّر اتجاهها فجأةً، وتسبح بعيدًا وببطءٍ مِن جديدٍ بذيلها الضخم الذي كان يضرب الهواء والماء على حدٍّ سواء.

-سأحاول مَرَّةً أُخرى.

قالها العجوز واعدًا نفْسه على الرغم مِن أنَّ يديه كانتا في حالةٍ سيئةٍ للغاية، وعيناه لا تستطيعان أن تريا سوى ومضاتٍ خافتةٍ.

جمع كل ألمة وما تبقَّى لديه مِن قوةٍ وكل فخره بنفْسه الذي امتلأت به ذاته على مر كل هذه السنوات، واضعًا كل ذلك في مواجهة سمكةٍ على حافة الموت.

اقتربت السمكة ناحيته أكثر، وسبحت جواره. لامست بمنجلها الألواح الخشبية لجسد القارب، وبدأت تتخطَّى القارب بطولها وحجمها الضخم، بلونها الفضي المخطط بشرائط أرجوانية السابح في ذلك الماء الداكن.

أسقط العجوز الخيط مِن يده، ووضع إحدى قدميه عليه، أمسك برمحه رافعًا إيَّاه لأقصى ارتفاعٍ ممكنٍ، وبدأ في مواجهة السمكة. بدأ المعركة معها بكل قوةٍ ممكنةٍ وبمزيدٍ مِن القوة عمَّا اعتاد. ارتفعت السمكة بزعنفتها

الصدرية في الهواء، حتَّى كادت تقارب صدر العجوز. شعر بأنَّ قوته آخذةٌ في التلاشي، فمال على أحد جانبي القارب، وبدأ في سحب السمكة إلى الخلف أكثر.

خرجت السمكة مِن الماء، وعَلَتْ في الهواء مستعرضةً جمالها وقوتها. كانت لحظةً طويلةً لدرجةٍ تشعر معها أنها تكاد تظل مُعلَّقةً هكذا في الهواء إلى الأبد فوق العجوز وقاربه. ولكنها سقطت مِن جديدٍ في الماء، مُحدِثةً صدمةً ضخمةً، وتطاير الماء بكثرةٍ على العجوز والقارب.

شعر العجوز أنَّ ضعفه وتعبه يزداد، ولم يستطع الرؤية جيدًا. لكنه نظَّف خيط الرمح، وتركه ينساب مِن جديدٍ مِن على كتفه، فرأى مِن جديدٍ ظهر السمكة الفضي، بينما رأس الرمح التي كانت مائلةً بزاويةٍ مِن على كتفه جاهزةً للانقضاض.

ضرب السمكة على رأسها، فاستقرت في مكانٍ ما فيها، وتحول لون البحر إلى لون الدم القاني مِن نزف قلب المارلين. كان الماء مُظْلِمًا كما لو كانت المياه ضحلةً. ولكن الدم انتشر في الماء كما لو كان سحابةً حمراءَ. كان لون السمكة الفضي ظاهرًا إلى الآن، وهي طافيةٌ فوق الأمواج.

نظر العجوز في لمحةٍ على المشهد الذي كان أمامه، وقام بلف خيط الرمح لفتين حول مربطه، ووضع رأسه بين يديه.

-اجعلْ رأسك صافية، قالها وهو يجلس مستندًا إلى مُقدِّمة القارب، وأردف: أنا عجوزٌ تَعِبٌ، ولكنني قتلت هذا المارلين. قتلتُ أخي، الآن يجب عليَّ أن أقوم بعملٍ شاقٍّ.

يجب أن أُجهِّز الأناشيط والحبال؛ لأُثبِته بطول جسد القارب. حتَّى

لو كنَّا اثنين هنا في هذا الأمر، كنَّا سنظل في أزمةٍ عندما نتعامل مع هذا المارلين محاولين إدخاله. فالقارب لا يُمكنه أن يحتويه أبدًا. يجب أن أُجهِّز كلَّ شيءٍ؛ لكي أثبّته جيدًا بجسد القارب، وأرفع السارية لأنطلق وأعود مِن حيث أتيت، أعود إلى الساحل.

بدأ في سحب السمكة؛ ليجعلها بطولها بمحاذاة القارب بأكبر قدرٍ يستطيعه، ممرِّرًا الحبل حول خياشيمها وفمها، جاعلًا رأسها ملتصقةً بمقدمة القارب.

أودُّ أن أراه. أودُّ أن ألمسه وأشعر به. إنه ثروتي الآن. ولكن ليس بسبب ذلك أودُّ أن أشعر به. أودُّ أن ألمس قلبه. كيف كان ألمه عندما غرستُ الرمح في قلبه في المرة الثانية؟

ربطه بأنشوطةٍ مِن ذيله، ثُمَّ لف الحبل مَرَّةً أُخرى عند وسط جسده؛ ليلتصق بالقارب.

«عُد إلى العمل أيها العجوز». قال ذلك لنفْسه، وهو يأخذ جرعةً قليلةً للغاية مِن الماء، وأردف: «هناك الكثير مِن العمل الشاق الذي يجب أن تنهيه، المعركة انتهت الآن».

نظر إلى السماء، ثُمَّ حوَّل عينيه إلى السمكة. نظر للشمس بحذرٍ.

إنها لا تتعدَّى منتصف النهار بكثيرٍ، والرياح التجارية تهبُّ مِن جديدٍ، وكل خيوط الصيد الآن لم تعد تعني شيئًا.

سوف أُقطِّع المارلين مع الصبي فور عودتي إلى البيت مِن جديدٍ.

-هيا أيتها السمكة.

لكن السمكة لم تأتِ، ولكنها بدلًا مِن ذلك أخذت تتمرغ في الماء، والعجوز يحاول سحبها إلى القارب بكل ما يستطيع مِن قوةٍ.

عندما أمسك للحظةٍ برأس المارلين عند مقدمة القارب، لم يُصدِّقْ حجمها، ولكنه ربط حبل الرمح في مربطه، ومرَّرَهُ حول رأسها، ثُمَّ حول خياشيمها، ثُمَّ قام بلفةٍ أُخرى حول سيفها، وربط ما تبقَّى مِن الحبل بمؤخرة القارب، ثُمَّ حرَّكه سريعًا، وربط أنشوطةً أُخرى منه عند مقدمة القارب، وقطع الحبل بعدها.

تحوَّل لون السمكة الآن إلى فضيٍّ، بدلًا مِن الأوروجواني اللامع، وظل نفْس اللون البنفسجي على ذيلها. بدت عينا السمكة مستقلتينِ، كأنهما مرآتان في منظار بحرٍ، أو كعينَي قدِّيسٍ يسير متأثِّرًا ممتلئًا بروح مسيرةٍ دينيةٍ.

-لقد كانت الطريقة الوحيدة لأقتله.

كان العجوز قد بدأ يشعر بتحسُّنٍ عندما علم أنَّ السمكة لن تستطيع الذهاب بعيدًا بعد ذلك، وقد أصبح ذهنه أكثر صفاءً الآن.

إنها تزن ما يزيد عن الخمسمائة رطلٍ. ربما يُكون أكثر مِن ذلك. ماذا لو بعت الرطل الواحد بثلاثين سنتًا؟

- أحتاج لقلمٍ مِن أجل حساب ذلك. رأسي ليس صافيًا بشكلٍ كافٍ، ولكنني أظن أن دي ماجيو العظيم كان سيصبح فخورًا بي اليوم. ليس لديَّ أيُّ نقرسٍ في عظامي. ولكن يديَّ وظهري تأذّوا بشكلٍ حقيقيٍّ.

أتساءل كيف يُمكن أن يكون ألم النقرس. ربما يُكون لديَّ دون أن أعلم.

شدَّ جسد السمكة إلى القارب مِن مقدمته إلى مؤخرته مرورًا بمقعد التجديف. كان كبيرًا للغاية. أكبر مِن القارب الذي كان به العجوز. بالتأكيد كان سيحتاج إلى قاربٍ أكبر؛ ليمكنه إحكام ربطه حوله. قطع جزءًا مِن الخيط، وربط الفك السفلي عكس سيفها. أصبح فمها الآن مغلقًا، ويُمكنه السباحة متجنِّبًا بأكبر قدرٍ ممكنٍ احتمالية أن يدخل الماء لفمها.

ثبَّت الساري حول القارب، وانحرف قليلًا مُتَّجِهًا إلى الجنوب الغربي. لم يكن العجوز في حاجةٍ لبوصلةٍ؛؛ ليجد الجنوب الغربي. كان يشعر بالرياح التجارية، ويفرد شراعه للإبحار وفقط. وإن كان لا بُدَّ مِن علامةٍ ما، فقد كان يضع خيطًا صغيرًا، وبه ملعقة أو شوكة؛ ليعرف اتجاه الرياح، وفي الوقت نفْسه يحاول البحث عن شيءٍ يأكله؛ مِن أجل التغلب على الرطوبة. لكنه لم يستطع إيجاد ملعقةٍ، كما أنَّ سمكة السردين التي لديه قد تعفَّنَتْ.

التقط بعضًا مِن أعشاب الخليج الصفراء التي التصق بها بعضٌ مِن القريدس. كانوا عشراتٍ مِن القريدس، أخذت تتقافز داخل القارب، مُحاوِلةً الهروب والعودة إلى الماء مِن جديدٍ. خلع العجوز رأسها، وأخذ يمضغها على مهلٍ كلها حتَّى ذيلها. كانت صغيرةً جدًّا، ولكنه كان يعلم أنها جيدة المذاق ومفيدةٌ في تغذيته وستجعله أقوى.

كان لدى العجوز شربتا ماءٍ في زجاجته. وقد استخدم منهما نصف شربةٍ بعدما أكل القريدس. القارب الآن يبحر بشكلٍ جيدٍ للغاية، واضعًا في اعتباره المعوقات الأساسية، وهي تلك السمكة التي تفوق قاربه طولًا وحجمًا.

***

قاد القارب ممسكًا بعصا تحت ذراعه. استطاع أن يرى السمكة حيث كان يُمكنه فقط أن يرى الجزء الأمامي منها، وهو يجدِّف مُحدِّقًا بعينيه في السمكة، ومُحاوِلًا التأكد مِن أن ما يحدث حقيقيٌّ، وليس مُجرَّد حلمٍ. في لحظةٍ ما، تلك التي شعر فيها أنَّ الوضع سيئٌ، فكَّر أنه رُبَّما يكون كل ذلك ليس أكثر مِن مُجرَّد حلم، ولكن كل ذلك تغيَّر عندما رأى السمكة قد خرجت مِن الماء، وظلَّتْ مُعلَّقةً في الهواء للحظاتٍ، وكأنها تكاد تقترب مِن السماء. عرف حينها كم هي قويةٌ، ولكنه في الوقت نفْسه لم يكن يستطيع تصديق أن يكون هناك سمكةٌ بهذه القوة. كل ذلك حدث وهو لم يكنْ يشعر أنه يستطع الرؤية جيدًا. أما الآن، فيُمكنه الرؤية بشكلٍ أفضل.

أُدرك الآن أنَّ هناك سمكةً بين يديَّ، وأنَّ الأمر ليس حلمًا، وأنَّ يديَّ ستشفيان سريعًا.

نظَّف يديه جيدًا، بعدما نزفتا كثيرًا، ووضع عليهما بعض الماء المالح، وهو ما سيداويهما. الماء الداكن في الخليج هو العلاج الأمثل لمثل هذه الجروح.

كل ما يجب أن أفعله الآن هو أن أُنظِّف يدي.

لقد قامت يده بما يجب أن تقوم به بأفضل شكلٍ ممكنٍ. والآن هما تُبحران به عائدًا إلى الشاطئ مِن جديدٍ، مع أخيه الذي أغلق فمه منذ قليلٍ، فاردًا ذيله بطول القارب الذي تجاوزه. ثُمَّ بدأ يشعر ببعض التشوُّش في رأسه.

هل أنا الذي أُحضِرُهُ إلى بيتي، أم هو الذي أحضرني إلى هنا؟ لو كنتُ أنا مَن أسحبه لن يكون هناك معنًى لتساؤلي إذنْ. حتَّى لو كنتُ قد استطعتُ إدخاله إلى القارب، فإنه في النهاية لم يفقد كرامته، ولن يصبح لسؤالي معنًى أيضًا. ولكننا نبحر ملتصقين معًا.

فلأترُكْهُ يأخذنا إن كان هذا ما سيسعده. ما هو أكيدٌ أنني أفضلُ منه بعدما تخطيتُ كل هذه الصعاب، كما أنه لم يتسبَّبْ في أذايَ بشكلٍ بالغٍ.

أبحرا جيدًا، والعجوز قد ربط يديه بالأكياس، واضعًا فيها الماء المالح؛ ليعالجها على مهلٍ، وهو يُحاول أن يجعل ذهنه صافيًا.

كانت السماء ممتلئةٍ بالسحب بما يكفي؛ ليعلم العجوز أنَّ النسيم سوف يستمر الليلة أيضًا. نظر إلى السمكة بعضًا مِن الوقت؛ ليتأكَّد مَرَّةً أُخرى أنها حقيقية. لقد مضى أكثر مِن ساعةٍ على المرة الأُولى التي هاجمها فيها أوَّل سمكة قرشٍ.

لم يكن القرش الذي هاجمها مجرَّد حادثٍ. لقد جاء مِن الأعماق مُتتبِّعًا سحابة الدم التي انتشرت في الماء، جرَّاء الدم الذي نزف مِن قلب المارلين بعد انتهاء المعركة. كان طول بقعة الدم جراء النزف قد وصل إلى أكثر مِن ميلٍ. جاء القرش سريعًا ودون أيِّ تحذيرٍ. اخترق سطح الماء، وظهر

لامعًا تحت ضوء الشمس، ثُمَّ عاد ثانيةً إلى الماء مُتتبِّعًا رائحة الدم. لكنه كان يعود مِن جديدٍ، ويسبح سريعًا جدًّا وبقوَّةٍ. كان كبيرًا للغاية مِن نوع «الماكو». هذا النوع الذي خُلِق ليسبح سريعًا. أسرع مِن كل أنواع أسماك البحر، وفوق كل شيءٍ كان جميلًا بجسده الأزرق اللامع وبطنه الفضية الناعمة. كان كما لو أنه سمكة أبوسيف، ولكن بفكٍّ ضخمٍ للغاية. كان جسده كله تحت سطح الماء، عدا زعنفته الصدرية التي أخذت تشقُّ سطح الماء دون تردُّدٍ. كان فكه به ثمانية صفوفٍ مِن الأسنان المائلة للداخل. لم تكنْ أسنانًا هرمية التشكيل كما هو معتادٌ في أسماك القرش، ولكنها كانت مثل أصابع إنسانٍ مسنونةٍ كما لو أنها مخالب. كانت قريبةً أيضًا مِن طول أصابع العجوز، ونصلها حادٌّ مِن الجانبين.

هناك أسماكٌ خُلِقت لتتغذَّى على كل الأسماك الأُخرى في البحر. تكون قويةً وسريعةً ومُسلَّحةً جيدًا، وليس هناك مَن يُمكن أن يكون عدوها. كان الماكو مِن هذا النوع مِن الأسماك. هو الآن يزيد سرعته كلما شم رائحة الدم، وزعنفته الصدرية الزرقاء تشق الماء مِن جديدٍ.

عندما رآه العجوز قادمًا، عرف أنه سمكة قرشٍ لا تخافُ أيَّ شيءٍ، وسوف تقوم بما ترغب، وكما تريد. جهَّز رُمحه، وجعل الحبل سهل الحركة بينما هو يُراقب القرش يأتي. كان الحبل قصيرًا؛ لأنه قَطَعَ أجزاءً كبيرةً منه لربط المارلين.

كانت رأس العجوز صافيةً، وعلى حالٍ أفضل الآن، ولكن الأمل داخله كان قليلًا، ولم يعرف لماذا كان يشعر بذلك.

إنه أمرٌ جيدٌ أن أظلَّ مستمرًا في الإبحار.

أخذ نظرةً على السمكة الكبيرة، وهو يشاهد القرش يقترب.

رُبَّما مِن الأفضل أن يكون كل ذلك مُجرَّد حلمٍ. لا يُمكنني أن أبعده عنها، لكنْ يُمكنني أن أواجهه، وأصيبه.

-دونتوسو، حظٌّ سيئٌ لأمك يا ولد.

اقترب القرش أسرع. عندما هاجم السمكة، استطاع أن يرى العجوز فمه مفتوحًا وعينيه الغريبتين وأسنانه التي تقضم بكل ما يستطيع مُحاوِلًا نزع اللحم مِن الذيل. كانت رأس القرش خارج الماء، وظهره يظهر أحيانًا، والعجوز يسمع ذلك الصخب الذي يصدر مِن مهاجمة القرش للمارلين ومحاولته تمزيق لحمها. حاول العجوز حينها أن يضربه بالرمح في رأسه فيما بين عينيه، ولكن الحبل كان طويلًا بما فيه الكفاية. لم يكنْ هناك المزيد مِن الخيط. فقط كان هناك رأسٌ ضخمةٌ وثقيلةٌ، وعينان كبيرتان تُغلق وتفتح في جوعٍ، بينما فكه بأسنانه الحادة لا يتوقَّف عن الحركة ومهاجمة السمكة.

حاول العجوز ضربه مَرَّةً أُخرى بكل ما يستطيع مِن قوةٍ بالرمح في الموضع الذي أراده مِن البداية. ضربه دون أملٍ كبيرٍ في أن يصيبه بشكلٍ كاملٍ. لكن القرش ترنَّح، ورأى العجوز عينيه وقد أخذتا تغيمان. رأى الحياة تحتضر فيهما. ترنَّح الماكو أكثر مِن مَرَّةٍ، والتف حول نفْسه، فالتف الحبل حوله. عرف العجوز حينها أنه قد انتهى، ولكن القرش لم يقبل ذلك. فبعدها وهو على ظهره وذيله يضرب القارب، شق القرش الماء كما يفعل زورقٌ بخاريٌّ سريعٌ. فأصبح لون المياه أبيض، وذيله يتحرَّك، وثلاثة أرباع جسده ظاهرٌ بوضوحٍ فوق الماء، وهو يرتعش والحبل يلتف حوله، ويصبح أكثر إحكامًا. استلقى القرش لوهلةٍ على سطح الماء، فرآه العجوز

حينها بكامله، ثُمَّ تهاوى، ونزل في الماء ببطءٍ.

-لقد أخذ ما يزيد عن ٤٠ رطلًا.

وأخذ الرمح معه أيضًا، وكل ما كان معي مِن حبلٍ. والآن سمكتي تنزف مِن جديدٍ، وسيكون هناك المزيد مِن القروش في الطريق إلينا.

لم يُحبَّ أن ينظر إلى المارلين بعدما أصبحت على ذلك الحال: مشوهة. لقد شعر أنه هو مَن هُوجم عندما هُوجمت.

لكنني قتلتُ القرش الذي هاجم سمكتي. وهو أكبر قرشٍ قابلته في حياتي، ويعلم الله كم قابلتُ مِن أسماك قرشٍ ضخمةٍ.

لقد كان جيدًا في نزاله معي حتَّى النهاية. أتمنَّى لو أن ذلك كله حلمٌ، وأنني لم أصطد المارلين. أتمنَّى لو أنني كنتُ في سريري الآن وحدي، أقرأ الجرائد.

-لكن الرَّجُلَ لم يُخلقْ مِن أجل أن يهزم. مِن الممكن أن يتحطَّم، لكنه لا يُهزم.

أنا آسفٌ؛ لأنني قتلتُ هذه السمكة على الرغم مِن كل شيءٍ. الآن هو بداية الوقت السيئ، وليس لديَّ رمحٌ. القرش كان قاسيًا وقويًّا، ولكنني أكثر ذكاءً منه. رُبَّما ليس الأمر كذلك. رُبَّما الأمر كله هو أنني كنتُ مُسلَّحًا أفضل منه.

-لا تُفكِّر أيها العجوز. أبحِرْ في طريقك، وتعاملْ مع الأمر عندما يحدث.

ولكن يجب أن أُفكِّر؛ لأنَّ هذا هو كل ما لدي. فليس لدي أيُّ جرائد

بها أخبار البيسبول، أو راديو لأستمع إليه. أتساءلُ: هل كان سيحبُّ دي ماجيو العظيم الطريقة التي ضربتُ بها رأس القرش؟ لم يكن أمرًا ذا شأنٍ كبيرٍ. أيُّ رَجُلٍ يُمكنه أن يفعل ذلك. بدتْ يدي حينها كأنها مخلبٌ. هل يبدو هذا جيدًا؟ لا يُمكنني أن أعرف. ليس لديَّ أيُّ شيءٍ سيءٍ في كعب قدمي، باستثناء المرة التي لُدغت فيها مِن شيءٍ لا أعرفه في البحر.

- فكِّرْ في شيءٍ مُفرحٍ أيها العجوز. فأنتَ مع كل دقيقةٍ تمرُّ تقترب أكثر مِن العودة إلى البيت. والإبحار الآن أصبح أسهل بعض الشيء بعد الـ ٤٠ رطلًا التي فقَدَتْها المارلين.

-لديَّ سكِّينٌ. يُمكنني إذنْ سنّ إحدى جوانب وربطه في يد أحد المجدافين.

فعل ذلك، وهو يُوجِّه ذراع الإبحار، ممسكًا به تحت ذراعه، والشراع تحت قدميه.

- الآن، مازلت رَجُلًا عجوزًا، لكنني مُسلَّحٌ بشكلٍ جيدٍ.

كان النسيم عليلًا، وكان هو يبحر جيدًا. كان يُشاهد الجزء الأمامي فقط مِن السمكة. أعاد له هذا بعض الأمل.

إنها سخافةٌ وليست أملًا. بجانب اعتقادي أنَّ ما فعلته تجاه السمكة كان خطيئةً. هناك الكثير مِن المشاكل التي ستواجهك غير التفكير في الخطيئة. كما أنه لا يُمكنك أن تحكم على الأمر بشكلٍ جيدٍ.

لا يُمكنني فهم الأمر، ولا يُمكنني الاعتقاد فيه. رُبَّما لم يكن مِن السيئ أن تقتل سمكةً. لقد فعلتَ ذلك مِن أجل أن أُبقي على نفْسي حيًّا، وأن أطعم الكثير مِن الناس. ولكن رُبَّما لو كان الأمر خطيئةً، سيكون أيُّ

شيءٍ آخر خطيئةً. لا تُفكِّرْ بشأن ذلك. لقد فات الوقت على أن تُفكِّر في الأمر مِن هذه الناحية، كما أنَّ هناك أناسًا يدفعون المال مِن أجل فعل ذلك. فلنُفكِّرْ في الأمر على هذا النحو: أنت ولدتَ صيَّادًا، والسمكة ولدتْ سمكةً. سان بيدرو صيَّادٌ، وكذلك والد دي ماجيو العظيم.

ولكنَّه أَحَبَّ أن يُفكِّرَ في الأمر. في كل هذه الأشياء التي كان جزءًا منها، وطالما لم يكن لديه شيءٌ يقرأُهُ، أو يملك راديو، فلم يبقَ له سوى التفكير في أن يكون الأمر كله خطيئةً.

أنت لم تقتل السمكة فقط مِن أجل أن تبقي حيًّا أو لتبيع الطعام للناس، أنت قتلتها مِن أجل الفخر، ولأنك صيَّادٌ. أنت أحببتها وهي حيَّةٌ، وأحببتها بعدما قتلتها. طالما أحببتها، لم يعد هناك خطيئةٌ في أن تقتلها، أم أنَّ الأمر أكبر مِن ذلك؟

-أنتَ تُفكِّرُ كثيرًا أيها العجوز.

ولكنَّك استمتعتَ بقتل القرش أيضًا. هو أيضًا كان يعيش على الأسماك كما هو حالك. لكنه لم يكن مجرَّد قرشٍ سيَّارٍ مثل القروش الأُخرى. لقد كان جميلًا ونبيلًا، ولا يخشى أيَّ شيءٍ.

-قتلتُهُ دفاعًا عن نفْسي. قتلتُهُ جيدًا.

كما أنَّ كلَّ شيءٍ يَقْتُلُ كلَّ شيءٍ بطريقةٍ أو أُخرى. الصَّيدُ يقتلني ويبقيني حيًّا في الوقت نفْسه. الصبي يبقيني حيًّا. لا يجب أن أخدع نفْسي كثيرًا.

مال على جانب القارب. حمل جزءًا مِن لحم السمكة كان على وشك أن ينفصل عنها جرَّاء هجوم القرش عليها. قضمها، وأخذ يمضغها جيدًا؛

ليختبر مذاقها وجودتها. كانت دافئةً وغضَّةً كاللحم تمامًا، ولكنها لم تكن حمراء. كان يعلم أنَّ لحمًا بهذه الجودة سيجلب أعلى سعرٍ في الأسواق، ولكنه كان يعرف أنَّ مِن الخطر تركها هكذا في الماء؛ لأن هذا يعني أنَّ الأمور ستسوء.

يبدو النسيم هادئًا وثابتًا. يتجه قليلًا نحو الشمال الشرقي. كان يعلم أنَّ هذا معناه أنَّ الرياح لن تتوقف الليلة. نظر العجوز في الأفق حوله، ولكنه لم يرَ أيَّ أثرٍ لأشرعة قوارب أو مداخن سفنٍ. كانت هناك الأسماك الطائرة تتقافز جوار قاربه مِن حينٍ لآخر، ولا شيء آخر سوى نباتات الخليج المائية الصفراء الذابلة، ولم يكن في السماء أيُّ طائرٍ.

أبحر لساعتين، واستراح مسندًا ظهره على مؤخرة القارب، يأكل أحيانًا بعضًا مِن لحم المارلين ليتقوى.

رأى حينها سمكتَي قرشٍ متجهتين صوبه.

-أي!

ليس هناك ترجمة لمثل هذه الكلمة. رُبَّما تكون صوت رَجُلٍ يتألم بشكلٍ لا إراديٍّ جرَّاء مسمارٍ بارزٍ مِن لوحٍ خشبيٍّ قد دخل في يده.

رأى الزعانف الصدرية لكلا السمكتين تسيران وراء بعضهما البعض، وقد ميّزهما، وعرف أنهما مِن أسماك القرش ذات اللون البني. تلك التي لها زعنفةٌ ثلاثيةٌ، وحركةٌ كاسحةٌ في المياه. لقد التقطا الرائحة، وهما بالتأكيد في حالة هيجانٍ شديدٍ وجوعٍ غبيٍّ، جعلهما يفقدان أثر الرائحة، ويعثران عليه مِن جديدٍ، ولكنهما في كل الأحوال يقتربان مِن القارب بمرور الوقت.

حاول العجوز أن يقود أسرع. أخذ مجدافه وسكِّينه القابع جواره، وحاول أن يُجرِّب حمله والتعامل معه بقدر ما يستطيع؛ لأن يديه كانتا لا تزالان تؤلمانه. حاول أن يفتحها ويُغلقها برويةٍ. أغلقها وهو يحاول أن يحتوي ألمها. أغمض عينيه، وكأنه يُحاول ألَّا يرى اقتراب أسماك القرش مِن المارلين. وكأنه يستسلم لقدره.

استطاع أن يُدقِّق النظر في كل التفاصيل الجسدية لسمكتي القرش. كانتا كرهيتين مِن ذوي الرائحة السيئة ونابشي فضلات البحر. قتلة حقيقون، وعندما يكونون جوعى، يُمكنهم أن يقضموا مجدافًا خشبيًّا ظنًّا منهم أنه سمكةٌ دون أيِّ تمييزٍ. يُمكنهم أيضًا أن يقضموا قدم سلحفاةٍ بحريةٍ وزعانفها، ورُبَّما يُهاجمون رَجُلًا في الماء لو كانوا جائعين وصدرتْ منه رائحة سمكةٍ.

-أيّ. تعالَ يا جالانوس.

كانا في طريقهما إليه، ولكنهما لم يكونا آتيينِ بنْفس طريقة «الماكو». أحدهما مرَّ مِن أسفل القارب إلى الجهة الأُخرى. شعر حينها العجوز بالقارب يهتز، وتكرَّر الاهتزاز في كل مَرَّةٍ كان يُهاجم فيها «الجالانوس» المارلين. وفي الوقت الذي كان أحدهما يقضم بنهمٍ مِن المارلين، كان الآخر يُراقب العجوز بعينيه الصفراوين الضيقتين، ثُمَّ أتى على السمكة هو أيضًا، وهاجمها واضعًا نصف فكه في لحمها مَرَّةً بعد أُخرى، نازعًا مِن جسدها قطعًا أخذتْ شكل نصف دائرةٍ على حوافها مِن آثار أسنانه. ومِن جديدٍ، فعل العجوز الشيء نفْسه الذي قام به مع الماكو. أخذ يُهاجم القرش في رأسه. في موضع مُخّهِ تحديدًا. كان يفعل ذلك بالسكِّين التي

كان قد ثبّتَهَا في مجدافه المكسور. هاجمه مَرَّةً بعد أُخرى، حتَّى أجبر الجالانوس على أن يرفع فكه عن السمكة، وينزلق في الماء بعيدًا عنها، مع ما أخذه منها.

كان القارب لا يزال يهتز مع كل هجومٍ يقوم به كلا الجالانوس على السمكة. أخذ العجوز يُناور القرش، مُحاوِلًا إخراجه مِن تحت الماء. عندما رآه، أرجح الهراوة في الهواء، وهوى عليه بكل قوته، ضاربًا إيَّاه بأقصى ما يستطيع ثُمَّ هاجمه بالسكِّين الذي استطاع بصعوبةٍ أن يطعنه به. لم يكن العجوز قد تعرَّض للأذى في يديه فقط، بل أُصيب كتفاه أيضًا، ولكنَّ القرش لم يُمهله وقتًا طويلًا، حيث عاد سريعًا، مُخرِجًا رأسه مِن الماء ليهجم على السمكة. سمح ذلك للعجوز أن يضربه مِن جديدٍ على رأسه المسطحة ذات الأنف المفلطحة. سحب العجوز نصل السكِّين مِن جسد القرش، وضربه مِن جديدٍ في الموضع نفْسه. كان القرش لا يزالُ مُطبِقًا بفكِّهِ على المارلين، والعجوز يطعنه في عينه اليُسرى، ولكنه لم يترك السمكة.

-لا!

قالها العجوز وهو يغرسُ النصل في منطقة الرأس مِن جديدٍ.

لقد كانت ضربةً حقيقيةً. يُمكنني أن أشعر بتهتُّك الغضاريف مِن أثرها.

استرجع العجوز المجداف، واضعًا النصل بين فكَّي القرش ليفتحهما. لف عصا المجداف والنصل داخل الفك؛ لكي ينزلق القرش بعيدًا عن السمكة.

-اذهبْ يا جالانوس. اذهبْ على عمق ميلٍ أو أكثر. اذهبْ، وابحثْ عن صديقك، أو رُبَّما تكون أمك التي كانت معك.

مسح العجوز نصل السكِّين، ووضعه جانبًا هو والمجداف. ثُمَّ بدأ في الإبحار مِن جديدٍ، واضعًا القارب على خط سيره، تاركًا الشراع يمتلئ بالرياح.

-لقد أخذ ربع ما بها مِن لحمٍ تقريبًا. أخذ الجزء الأفضل منها. أتمنَّى لو كان ذلك حلمًا، وأنني لم أصطدها أبدًا. أنا آسفٌ أيتها السمكة. كل شيءٍ كان خطأً مني.

توقَّف عن الحديث، ولم يكن يريد أن ينظر إلى المارلين التي كانت تنزفُ الكثير مِن الدماء، ولكن لا يزال ظهرها الفضي اللامع واضحًا للعيان.

-لم يكن عليَّ أن أذهب بعيدًا في المحيط إلى ذلك الحد يا مارلين. لا مِن أجلي، ولا مِن أجلك. أنا آسفٌ أيتها السمكة. جهِّز نفْسك الآن ونصل سكِّينك، وكُنْ مستعدًا لما هو قادمٌ.

-أتمنَّى لو كان لدي حَجَرٌ مِن أجل أن أشحذ السكِّين.

قالها بصوتٍ عالٍ، بينما كان يشحذ السكِّين باستخدام المجداف الخشبي.

-يجب بعد ذلك أن أُحضِر سكِّينًا أقوى وحجرًا صلبًا. كان يجب أن تُحضر الكثير مِن الأشياء، لكنَّك لم تفعل أيها العجوز. الآن لا وقت للتفكير في ما لم تُحضِّرْ، بل فكِّرَ فيما يُمكن أن تفعل بما لديك هنا.

-كل ما حدث علَّمني أشياء لم أكنْ أُدركها مِن قَبل. أنا تعبتُ مِن كل ذلك.

قبض على المقود تحت ذراعه، واضعًا يديه في الماء عكس اتجاه سير القارب.

-الله وحده هو مَن يعلم كم أخذ آخر قرشٍ منها. لكنها الآن أخف كثيرًا.

لم يُرد أن يُفكِّر في الجزء الخفي مِن السمكة. كان يعلم أنَّ القروش هاجمتها بضراوةٍ، وأنها الآن تنزف الدماء في الماء، صانعةً طريقًا بطول أميالٍ ممهدةٍ لهجماتٍ جديدةٍ مِن قروشٍ أُخرى.

لقد كانت سمكةً يُمكن أن تُدبِّر أمر الطعام لرَجُلٍ طوال الشتاء. لا تُفكِّرْ في ذلك. فقط استرخ، وحاول أن تجعل يديك في وضع استعدادٍ للدفاع عمَّا تبقَّى منها. رائحة الدم التي في يديك لم تعدْ تعني شيئًا أمام هذا الطريق مِن الدماء الذي يخترق مياه المحيط. كما أنَّ يديك لم تعد تنزف كثيرًا، ووجود قطعٍ بها لم يعد يعني أيَّ شيءٍ. رُبَّما هذا النزف يحمي يديك مِن أن تصاب بشدٍّ جديدٍ.

في أيِّ شيءٍ يُمكن أن أفكِّر الآن؟ لا شيء. يجب ألَّا أفكِّر في شيءٍ منتظرًا القادمين للهجوم عليه. كنتُ أتمنَّى حقًّا لو أنَّ ذلك حلمٌ. ولكن مَن يعلم؟ رُبَّما تسير الأمور في النهاية على نحوٍ جيدٍ.

القرش الذي تلا ذلك كان وحيدًا وذا أنفٍ كالمجرفة. جاء جائعًا للغاية فاتحًا فمه؛ ليلتهم أيَّ شيءٍ في طريقه. كان فمه كبيرًا للغاية وبشكلٍ كافٍ لوضع رأسٍ بشريةٍ فيه. تركه العجوز يُهاجم السمكة، ثُمَّ دفع بالسكِّين

المثبت بالمجداف في رأسه، ولكن القرش تراجع للوراء، والتف مُخلِّصًا نفْسه مِن النصل. حاول مَرَّةً أُخرى طعنه، فأصابه بشكلٍ قاتلٍ.

حاول العجوز أن يتشبَّث بدفة القارب؛ كي لا يُفلت خط سيره. لم يكنْ قد رأى مِن قَبل قرشًا ضخمًا يغرق في الماء ببطءٍ هكذا. كان جحمه الطبيعي آخذًا في التضاؤُل إثر مغادرته الحياة حتَّى أصبح صغيرًا. كان هذا دائمًا ما يُذهِل العجوز، ولكنه لم يكنْ قد شاهده مع سمكةٍ ضخمةٍ إلى هذا الحد مِن قَبل.

-رمح الصيد لديَّ الآن مُنكسرٌ. ولكنه لن يكون مناسبًا. لدي أيضًا مجدافان ومقود القارب وهراوةٌ صغيرةٌ.

لقد هزموني بالفعل. رَجُلٌ عجوزٌ لديه هراوةٌ صغيرةٌ في مواجهة قروشٍ حتَّى الموت. لكنني سأحاول طالما ظل في حوزتي الهراوة والمجدافان.

وضع يديه في الماء مِن جديدٍ. يبدو الوقت زاحفًا ناحية الغروب. لم يكن قادرًا حينها على فعل شيءٍ. كان هناك المزيد مِن الرياح. جعله هذا يأمل أنه ربما سيبحر أسرع. ربما يرى الشاطئ قريبًا.

-أنت تَعِبٌ أيها العجوز. أنت تَعِبٌ مِن الداخل.

لم تهاجمه أيُّ قروشٍ أُخرى إلَّا مع الغروب.

رأى العجوز حينها زعنفتين صدريتين ظاهرتين بلونيهما البني فوق الماء، وهما في طريقهما إليه، متّبعين طريق الدم الذي مهَّدَتْهُ المارلين.

لم يكونا يحومانِ حول الرائحة. ولكنهما مُتجهين مباشرةً إلى القارب،

سابحين جنبًا إلى جنبٍ.

جدَّف بأسرع ما يُمكنه. كان أمامه مجدافٌ قديمٌ مكسورٌ، طوله يُقارب قدمين ونصفًا. يُمكن إذنْ أن يستخدمه بفاعليةٍ. كما أنَّ لديه هراوةً يُمكنه أن يُمسكها بيدٍ واحدةٍ؛ لأنَّ مقبضها مصممٌ لكي تمسَك باليد اليُمنى. مرَّر أصابعه حول مقبضها ممسكًا إيَّاها جيدًا، وهو يُشاهد القروش قادمةً. كان كلاهما مِن الجالانوس أيضًا.

يجب أن أتركه يحكم قبضته جيدًا في البداية؛ لأستطيع أن أضربه على أنفه مباشرةً وبطول رأسه.

اقترب الاثنان معًا جنبًا إلى جنبٍ. بينما كان يرى الأقرب منهما فاتحًا فمه، ويُمسك المارلين مِن الجانب الفضي، رفع الهراوة عاليًا، وهوى بها بكلِّ ثقلِه وبضراوةٍ على مُقدِّمة رأس القرش. لقد شعر أنَّ نصل الهراوة قد انغرس في الرأس، ولكنه شعر أيضًا أنَّ صلابة العظام لم تعدْ كما كانت عليه. ضربه مَرَّةً بعد أُخرى في المنطقة نفْسها، فجعلته هذه الضربات يرفع فكه عن السمكة، منزلقًا في الماء، مبتعدًا عنها.

ذهب القرش الآخر بعيدًا بعض الشيء، ولكنه الآن عاد بفكِّه مفتوحًا على كامل سعته. كان العجوز يستطيع أن يرى قطعًا مِن لحم السمكة عالقةً على جانبَي فكِّه لدرجةٍ تمنعه مِن أن يُغلقه بشكلٍ كاملٍ. مال عليه، وضربه على رأسه. نظر له القرش وهو ينتزع جزءًا مِن لحم السمكة. انهال عليه العجوز ضربًا بالهراوة مَرَّةً بعد أُخرى بكل قوةٍ وصرامةٍ، مُحاوِلًا جعله ينزلق بعيدًا عن جسد السمكة.

-تعالَ يا جالانوس. تعال مَرَّةً أُخرى.

أتى القرش بسرعةٍ مَرَّةً أُخرى بالفعل. ضربه العجوز على فكه ورأسه بصلابةٍ، هاويًا عليه مِن أعلى لأسفل بهراوتِهِ. شعر في ذلك الوقت أنَّ العظم يتكسَّر في قاعدة المخ. ضربه مَرَّةً أُخرى في نفْس المكان في الوقت الذي كان القرش لا يزالُ ممسكًا السمكة بفكِّهِ، ثُمَّ تركها آخذًا معه بعضًا مِن لحمها.

راقبه العجوز وهو ينزلق في الماء، ولكنه لم يظهرْ مُجدَّدًا.

ثُمَّ رأى واحدًا على سطح الماء مِن جديدٍ يسبح في دوائر. لكن لم يرَ زعنفة الآخر.

أعلم أنه لا يُمكنني قتلهما. ولكنني جرحتهما بشكلٍ بالغٍ، ولا يشعر أيٌّ منهما أنه بخيرٍ. لو أنه في إمكاني استخدام الهراوة بيدي الاثنتين، كان يُمكن أن أقتل الأوَّل بالتأكيد.

لم يرد أن ينظر إلى السمكة. كان يعلم أنَّ نصفها قد دُمِّرَ تقريبًا. ذهبت الشمس الآن، بينما كان هو في خضمِّ معركته مع القروش.

سوف تُظلِم تمامًا في أيِّ وقتٍ. يجب أن يكون في إمكاني أن أرى أضواء الهافانا الآن، ولو كنتُ بعيدًا للغاية ناحية الشرق يجب أن يكون في إمكاني أيضًا أن أرى أضواء الشواطئ الجديدة.

لا يُمكنني أن أكون بعيدًا جدًّا. آمل ألَّا يكونوا قد شعروا بالقلق عليَّ. هُناك فقط الصبي الذي سيقلق بالتأكيد. لكن أنا مُتأكِّدٌ أنه سيكون على ثقةٍ مِن أنني سأعود. الكثير مِن الصيَّادين كبار السن سيقلقون. وآخرون كثيرون أيضًا. أنا أعيش في بلدةٍ جيدةٍ.

لا يستطيع بعد الآن أن يتحدَّث إلى السمكة. لقد تم تمزيقها بشكلٍ سيئٍ للغاية. ولكنه فجأةً حاول أن يتحايل على تلك الحقيقة، فناداها:

-يا نصف سمكةٍ، يا سمكة أينما كنتِ الآن: أنا آسفٌ؛ لأنني ذهبتُ بعيدًا وراءَكِ. لقد دمَّرتُ كلينا. ولكنَّنا قتلنا العديد مِن أسماك القرش، ومزَّقْنا الكثير منها. كم عدد الذين قتلتيهم مِن قَبل أيتها السمكة العجوز؟ لا أظنُّ أنَّ لديك هذا السيف في رأسك مِن أجل لا شيء.

كان يُفكِّرُ في سيف السمكة، وما قد يستطيع فعله مع القروش لو كان يستخدمه بدلًا مِن الرمح. كان بالتأكيد سيصبح أكثر صلابةً في معركته معهم.

يجب أن أكون أكثر صلابةً في معركتي معهم. ولكن ليس لديَّ أيُّ فؤوسٍ أو سكاكين. لكن لو كان لديَّ أيٌّ منهما، كان يُمكنني أن أُقاوِم بشكلٍ أقوى. كان يُمكن حينها أن نُحاربهم سويًّا. ماذا ستفعل لو أتوا الليلة؟ ماذا يُمكنك أن تفعل يا مارلين؟

-سأقاتلهم. سأقاتلهم حتَّى الموت.

لكن في الظلام، حيث يُكون هناك أيُّ ضوءٍ أو علاماتٌ تُمكِّنُك مِن الرؤية. لم يكن هُناك غير الرياح التي تتحرَّك بثباتٍ على الشراع، شعر أنه رُبَّما يكون قد مات بالفعل، قبض بيده على يده الأُخرى، وشعر بكفَّيه. لم يكونا نافقتين بعد. استشعر الحياة فيهما بالألم الذي كانتا تعانيان منه. أغلقهما وفتحهما مِن جديدٍ. استطاع حينها أن يسترجع الألم. استطاع أن يسترجع الشعور بالحياة عندما شعر بالألم. مال بظهره على مُؤخِّرة القارب. كان يعلم أنه ليس ميتًا. كتفاه المجروحان أخبراه بذلك أيضًا.

أنا أحفظ كل الصلوات التي وعدتُ أنني سأقولها لو اصطدتُ السمكة. لكنني تَعِبٌ للغاية، ولا يُمكنني أن أقولها الآن. سيكون مِن الأفضل أن أحضر الكيس؛ لأضعه على كتفي.

مال على مُؤخِّرة القارب، وقاد وهو يُراقب أيَّ توهُّجٍ يُمكن أن يأتي مِن السماء.

لديَّ نصفُها إذنْ. رُبَّما أكون محظوظًا أن أصل إلى الشاطئ بهذا النصف. يجب أن يكون لديَّ بعض الحظ.

-لا. لقد تعدَّيتَ حظك لمـَّا ذهبتَ بعيدًا جدًّا في المحيط مُتَّبِعًا إيَّاها.

-لا تكن سخيفًا. وابق متيقظًا؛ رُبَّما يكون لديك المزيد مِن الحظ.

-أودُّ أن أشتري بعضه لو أنَّ هناك مكانًا يبيع الحظ.

-بِمَ يُمكن أن أشتريه؟ سأل نفْسه.

-هل يُمكن أن أشتريه برمح الصيد الذي فقدتُهُ؟ بالسكِّين التي كُسِرتْ؟ بيدين مصابتين خشنتين؟!

-رُبَّما تحُاول شراءه بأربعةٍ وثمانين يومًا في البحر دون صيدٍ. لقد اشتريتَ هذه الأيام مِن قَبل. فما المانع أن تشتري بها الآن؟

يجب أن أتوقَّف عن التفكير في كل هذه التفاهات. الحظ شيءٌ يأتي في عدة أشكالٍ، فمَن يُمكنُهُ أن يتعرَّف عليه؟ أودُّ أن آخذ بعضًا مِن أيِّ شكلٍ مِن أشكاله وأدفع ما يريدون مقابل ذلك. أتمنَّى أن أرى أضواء الشاطئ. أتمنَّى الكثير مِن الأشياء، ولكنَّ هذا هو الشيء الذي أتمنَّاه الآن.

قرَّر أن يجلس بشكلٍ أكثر راحةً ليقود القارب. كان قد تأكَّد أنه ليس ميِّتًا عندما شعر بالألم الذي كان في يديه المجروحتين.

رأى على الماء انعكاس الضوء الآتي مِن المدينة، وهو ما أخبره أنَّها رُبَّما تكون العاشرة مساءً. لم يكن الضوء ملموسًا في بداية الأمر كضوء القمر في السماء، لكن بمرور الوقت أخذت الأضواء تظهر بشكلٍ أكبر على امتداد الساحل. ومع تزايد النسيم، قاد القارب صوب الضوء، وفكَّر أنه الآن قريبٌ مِن العودة.

الآن انتهى كلُّ شيءٍ. رُبَّما يهاجمها أحدهم مِن جديدٍ، ولكن ماذا يُمكن أن يفعل رَجُلٌ عجوزٌ دون سلاحٍ في مواجهة كلِّ ذلك؟

كان مُنهَكًا تمامًا، وكل جزءٍ في جسده يؤلمه، ولا يزال الليل باردًا للغاية. أتمنَّى ألَّا تكون هناك معركةٌ أُخرى. أتمنَّى جدًّا ألَّا تكون هناك معركةٌ أُخرى.

بحلول منتصف الليل، كانت هناك معركةٌ. كان يعلم داخله أنها معركةٌ بلا فائدةٍ مرجوَّةٍ؛ لأنهم قد جاءوا لأوَّل مَرَّةٍ في مجموعاتٍ كبيرةٍ.

لم يكن يستطيع أن يرى أكثر مِن الخطوط التي أحدثتها الزعانف الصدرية في الماء بلونها الفسفوري كلما هاجموا السمك. أخذ يضرب بالهراوة على رؤوسهم، وسمع أفكاكهم تقضم لحم السمكة، والقارب يهتز كلما اصطدموا وهم يقبضون عليها بأفواههم. كان يضرب بالهراوة بشكلٍ مُتقطِّعٍ كل ما يُمكن أن يسمعه أو يشعر به بكل ما يملك مِن قوةٍ. شعر بشيءٍ يقبض على هراوته، ثُمَّ سُحِبَتْ منه بقوةٍ.

نَزَعَ مقود القارب مِن المكان الـمُثبَّت فيه، ماسكًا إيَّاه بيديه الاثنتين،

مُهاجِمًا القروش مَرَّةً بعد أُخرى. لكنهم الآن عند مُقدِّمة القارب يُحاولون نزع لحم المارلين بقدر ما يستطيعون. كانت السمكة مع ذلك تلمع تحت الماء، بينما كلٌّ منهم يأتي، فيقضم جزءًا منها، ذاهبًا، ثُمَّ عائدًا مِن جديدٍ؛ ليهاجمها مُكرِّرًا الأمر نفْسه.

جاء أحدهم أخيرًا مِن ناحية رأسها، وهو يعلم أنَّ السمكة قد انتهت بالفعل. أخذ العجوز يضرب بالمقود على رأس القرش، وهو يُحاول أن يُمسك رأس السمكة الثقيلة بفكِّه، مُحاوِلًا قضم أيّ شيءٍ. ضربه مَرَّةً بعد أُخرى. سمع المقود ينكسر، فأخذ يدفع القرش مِن جديدٍ بالمقود بعدما انكسر. شعر أنَّ القرش ذهب بعيدًا بعدما أخذ منها ما استطاع. كان هذا آخر قرشٍ مِن مجموعة القروش التي هاجمتها. لم يعدْ هُناك مِن السمكة ما يُمكن أن يأكلوه.

كان العجوز يتنفَّس بصعوبةٍ شديدةٍ، ويشعر بمذاقٍ غريبٍ في فمه. مذاق يبدو نحاسيًّا حلوًا بشكلٍ مُقزِّزٍ ومثيرٍ للرعب في الوقت نفْسه. جعله ذلك خائفًا في تلك اللحظة. لكن الأمر لم يستمر طويلًا لحسن حظه.

بصق في الماء، وقال: كُلْها أيها الجالانوس، واحلم أنك قتلتَ رَجُلًا.

علم أنه قد هُزِم أخيرًا ودون أيِّ رجعةٍ في ذلك. عاد إلى مُؤخِّرة القارب، ووجد أنَّ ذراع المقود لا يزال صالحًا لإعادة تركيبه في موضعه، وأبحر مِن جديدٍ. وضع الكيس حول كتفه، والقارب على مساره. استطاع الآن أن يبحر بخفَّةٍ، ولم تكن لديه أيُّ أفكارٍ أو مشاعر مِن أيِّ نوعٍ. ترك كلَّ شيءٍ وراءه، والآن أخذ يُبحر بالقارب بأقصى ما يستطيع مِن ذكاءٍ وانضباطٍ؛ ليصل إلى مرفأ مدينته.

في الليل، هاجمتْ أسماك قرشٍ أُخرى هيكل السمكة، محاولين أن يجدوا أيَّ شيءٍ يُمكنهم أكله مِن فتات الطاولة، لكنَّ العجوز لم يُعرهم انتباه. لم يُعِرِ اهتمامًا لأيٍّ ممَّا حدث خلال ذلك الوقت، باستثناء توجيه القارب إلى الشاطئ. لاحظ فقط كم أصبح القارب خفيفًا وجيدًا في إبحاره الآن عندما لم يعدْ هناك ذلك الوزن الضخم الذي كان على جانبه.

هو قاربٌ جيدٌ وسليمٌ أيضًا. لم يتأذَّ منهُ مع كل ما حدث سوى ذراع المقود، وهو سهلٌ استبداله.

استطاع أن يشعر أنه داخل تيار الماء الآن. استطاع أن يرى أضواء المستعمرات على الشاطئ بطول الساحل. علم أنه لم يعدْ هُناك الكثير على الوصول إلى كوخه.

الرياح صديقتنا في كل الأحوال -أحيانًا-. أما المحيط؛ فهو مع أصدقائنا وأعدائنا. وفِراشي، فِراشي هو صديقي. فقط فِراشي. سيكون وصولي إلى فِراشي أمرًا عظيمًا.

إنه مِن السهل أن تكون مهزومًا. لم أكنْ أعلم إلى أيِّ حدٍّ هو أمرٌ سهلٌ أن تكون مهزومًا. وما الذي هزمك؟ لا شيء، لقد هُزِمتَ لأنك مضيتَ بعيدًا. هُزِمتَ لأنك أردت المضيَّ بعيدًا، وقد فعلتَ ذلك.

كانت أضواء المقهى الخارجية لا تزالُ مضيئةً عندما وصل إلى مرفأ الميناء الصغير. كان يعلم أنَّ الجميع نائمون الآن في أسرتهم. كان النسيم يرتفع بثباتٍ، وأخذت الرياح تهبُّ بقوةٍ. لقد كان ذلك سببًا آخر في أن يكون المرفأ هادئًا. عندما وصل، ثبَّت القارب بصخرةٍ عليها لوحٌ خشبيٌّ. لم يكنْ هُناك أيُّ أحدٍ يُمكن أن يُساعده. خرج مِن القارب مستندًا إلى

الصخرة. أخرج الصاري والشراع الذي لفَّهُ وثناهُ، ثُمَّ وضع الصاري على كتفه، وبدأ في تسلُّق الصخور صاعدًا الطريق.

كان يُدرك مدى عمق شعوره بالإرهاق والتعب. توقَّف للحظةٍ، ونظر إلى الخلف، فرأى انعكاس أضواء الطريق على ذيل المارلين بطوله وهيكلها العاري مِن اللحم. رأى العظام البيضاء والرأس الداكنة بسيفها المنتصب. لم يكنْ بها أيُّ بقايا مِن اللحم. كانت عاريةً تمامًا.

بدأ في تسلُّق الطريق مُجدَّدًا، وعندما وصل إلى أعلاه، شعر بتعبٍ شديدٍ يجتاحه، جعله مضطرًا لأن يرقد لبعض الوقت، ويرفع الصاري مِن على كتفه. حاول أن يقوم حاملًا الصارية، لكن الأمر كان صعبًا. كانت هناك قطةٌ تسير في طريقها، وتبحث في الأرض عن شيءٍ تأكله، فأخذ يراقبها بعض الوقت.

نهض في النهاية، والتقط الصاري مِن الأرض، واضعًا إيَّاه على كتفه، وبدأ في صعود الطريق مِن جديدٍ. احتاج لأن يتوقَّف ليرتاح خمس مرَّاتٍ أثناء سيره قبل أن يصل إلى الكوخ.

داخل الكوخ، أسند الصاري على الحائط. وجد زجاجة ماءٍ في الظلام، فأخذ منها جرعةً، ثُمَّ استلقى على السرير. غطَّى نفْسه جيدًا: ظهره وقدميه حتَّى كتفيه، وَاضِعًا رأسه على الجرائد، مادًّا ذراعيه خارج الغطاء وكفيه متجهين إلى أعلى.

كان نائمًا حينما جاء الصبي ليتحقَّق مِن الكوخ في الصباح. كانت الرياح تعصف بشدةٍ، وقد جرفت القوارب الراسية مِن أماكنها. الكثير مِن القوارب لم تخرج اليوم للصيد، ونام الصبي مُتأخِّرًا، ثُمَّ أتى ليتحقق مِن

كوخ العجوز كما كان يفعل كلَّ صباحٍ. رأى الصبيُّ العجوزَ يتنفَّس، ثُمَّ رأى يديه المجروحتين، فبدأ في البكاء. خرج بهدوءٍ ذاهبًا إلى المقهى؛ ليُحضِر للعجوز بعض القهوة، وطوال نزوله الطريق كان يبكي.

كان العديد مِن الصيَّادين حول القارب ينظرون إلى ما هو مربوطٌ جواره في الماء. أحدهم رفع سرواله حتَّى لا يبتل، وأخذ يقيس طول الهيكل بخيطٍ.

لم يذهب الصبي معهم. لقد كان هناك قبلهم جميعًا. حيث وجد أحد الصيَّادين يعتني بالقارب.

-كيف هو الآن؟ صاح أحد الصيَّادين مِن بعيدٍ.

-نائمٌ. لا تجعل أحدًا يزعجه.

قالها الصبي وهو يبكي غير مكترثٍ مِن أن يروه على ذلك الحال.

قال الصيَّاد الذي كان يقيس: هيكل السمكة طوله ٨٠ قدمًا مِن الأنف إلى الذيل.

-أُصدِّقُ ذلك. قالها الصبي، وأكمل طريقه إلى المقهى.

-أريد القهوة ساخنةً، وبها الكثير مِن الحليب، وأضف سُكَّرًا أيضًا.

-أيَ شيءٍ آخر؟

- لا. بعد ذلك سأرى إن كان يستطيع أن يأكل.

-أيّ سمكةٍ تلك التي اصطادها؟ إنها لا تبدو كأيِّ سمكةٍ!

سأله صاحب المقهى، فبدأ الصبي في البكاء.

-هل تريدُ أيَّ مشروبٍ آخر؟

-لا. أخبرهم فقط ألَّا يُزعجوا سانتياجو- وسوف أعود.

-أخبرْهُ كم أنا آسفٌ لأجله.

-شكرًا لك.

حمل الصبي القهوة الساخنة إلى كوخ العجوز، وجلس جواره حتَّى استيقظ. بدا للحظةٍ أنه سيفيق، ولكنه عاد لنومٍ عميقٍ مِن جديدٍ. فذهب الصبي؛ لِيُحضر بعض الأخشاب لتسخين القهوة.

أخيرًا استيقظ العجوز.

-لا تقمْ. تناولْ هذه.

وصبّ الصبي بعض القهوة في كوبٍ زُجاجيٍّ.

أخذها العجوز، وشربها.

-لقد هزموني يا مانولين. لقد هزموني بالكامل.

-هو لم يهزمْكَ. لم يكن هذا الذي اصطدته ما هزمك. أليس كذلك؟

-لا. ما حدث بعد ذلك.

-بيدريكو يعتني بالقارب وعدَّة الصيد. ماذا تود أن تفعل برأسها؟

-قل لبدريكو أنَّ الرأس له. يُمكن أن يفتتها ويستخدمها كطُعْمٍ للأسماك.

-والرمح؟

-يُمكنك أن تحتفظ به.

-أنا أريده فعلًا. الآن يجب أن نضع خططنا حول الأشياء الأُخرى.

-هل بحثوا عني؟

-بالطبع، حرَّاس السواحل والطائرات بحثوا عنك في المحيط.

-المحيط كبيرٌ جدًّا. والقارب صغيرٌ جدًّا. وصعبٌ أن يروه.

لاحظ العجوز كم هو جميلٌ أن تتحدَّث مع أحدهم، بدلًا مِن التحدُّث إلى نفْسك وحيدًا في البحر.

-افتقدتُكَ. ماذا اصطدتَ في غيابي؟

-واحدةً في اليوم الأول، واثنتين في اليوم الثاني، واثنتينِ في الثالث.

-جيدٌ جدًا.

-الآن سنصطاد سويًّا مَرَّةً أُخرى.

- لا. أنا لست محظوظًا. لم أعدْ محظوظًا يا فتى.

-فليذهب الحظ إلى الجحيم. أنا سأُحضر الحظ معي.

-ماذا سوف تقول لأُسرتِكَ؟

-لا أهتم. لقد اصطدتُ سمكتين بالأمس. ولكنَّنا سنعود للصيد سويًّا؛ لأنني لا زلتُ أُريد تعلُّم الكثير منك.

-يجب أن يكون لدينا رمحٌ جيدٌ، وأن يكون دائمًا معنا على سطح القارب. يجب أن تكون شفرته حادةً؛ لتتحمل المعارك مع القروش، وليس مِن السهل كسرها؛ لأنَّ سكِّيني كُسِرَتْ.

سأل العجوز: لمتى سوف تستمر هذه الرياح؟

-رُبَّما ثلاثةً، رُبَّما أكثر.

-سوف أُجهِّز كل شيءٍ. وسنترك الوقت ليدك؛ لتتحسن مِن جروحها.

-أعلم كيف يُمكن أن أعتني بهما. في الليلة الماضية تعاركتُ مع شيءٍ ما في الماء، وشعرتُ أنني أُصِبْتُ في صدري أيضًا.

-اعتنِ بذلك أيضًا. استلقِ أيها العجوز، وسوف أُحضِر قميصك النظيف وشيئًا لتأكله.

-أحضرْ أيضًا أيًّا مِن جرائد الأيام التي غبتُ فيها.

-يجب أن تتحسن سريعًا؛ لأنَّ هناك الكثير مِمَّا أريدُ أن أتعلَّمَهُ مِنك. أنتَ يُمكنك أن تعلِّمني كل شيءٍ. أخبرني كم عانيتَ؟

-الكثير.

-سوف أُحضر الطعام والجرائد. استرح الآن جيدًا، وسوف أحضر بعض الأشياء مِن مخزن الأدوية.

-لا تنسَ أن تقول لبيدريكو أنَّ الرأس له.

-لا. سأتذكَّر.

عندما خرج الصبي، ونزل على الطريق ذي الصخور القرميدية، بدأ في البكاء مُجدَّدًا.

في تلك الظهيرة، كانت هُناك مجموعةٌ مِن السيَّاح في المقهى الذي يُواجه البحر، ينظرون لأسفل في الماء، وهم جالسون، وأمامهم أكواب الكحول الفارغة، وهياكل أسماك الباراكودا التي يبدو أنهم انتهوا مِن أكلها للتو. رأت امرأةٌ مِن المجموعة الهيكل الأبيض الضخم والذيل الطويل على الشاطئ تجذبه حركة الموج في المرفأ الضيق المفتوح على البحر الشاسع.

-ما هذا؟

سألت النادل وهي تشير إلى السمكة التي أصبحتْ تُشبه النفايات التي تنتظر أن تنجرف مع حركة المد والجزر في أيِّ وقتٍ.

- قِرشٌ. قالها بالأسبانية، ثُمَّ أعادها مَرَّةً أُخرى بالإنجليزية.

- لم أكن أعلم أنَّ هناك قروشًا جميلةً وأنيقةً ذات ذيلٍ مُلفِتٍ إلى هذا الحد.

- أنا أيضًا لم أكن أعلم ذلك. قال رفيقها.

أعلى الطريق، كان العجوز في كوخه قد غطَّ في النوم على وجهه مِن جديدٍ. والصبي يجلس جواره يراقبه.

كان العجوز في ذلك الوقت يحلم مَرَّةً أُخرى في نومه بالأُسُود.

تمَّت